تلة الغجر

رواية

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف
عنـــوان الكتاب: تلة الغجر
التصنيف الأدبي: رواية
اســـــم المـؤلف: حسام طه
رقـم الإيـــــداع: 9794 / 2020
الترقيـــم الدولي: 9 - 73 - 6792 - 977 - 978
تصميـــم الغلاف: محمد وجيه
التدقيـق اللغوي: د. هبـة ماردين
التنسيق الداخلي: محمد وجيه

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر - بورسعيد
المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة
جوال: 00201211132879
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

تلة الغجر

رواية

حسام طه

الإهداءُ

و في القلب أشياء

تولد و تموت

و لا يفصح عنها...

حسام طه

****

تلةُ الغجرِ
الفصل الأول

خوفي منهم قد ضوعِفَ، وأصبح خوفاً واعياً، تعيه كلُّ الحواس، ومحدداً لما تحتويه هذه الملامح المخيفة من قدرة على البطش والإرعاب.

الموقفُ باتَ صعباً يوماً واحداً بعد رفع الدعم عن الخبز اندلعت المظاهرات في أكثر من عشرين محافظة. بدأها أمس طلاب جامعة عين شمس، وعمال غزل حلوان، ثم جامعة القاهرة وعمال الترسانة البحرية، كانت هذه الشرارة الأولى. أما اليوم التاسع عشر من يناير **1977** انتشرت بسرعة النار في الهشيم لتعمَّ كلَّ محافظات الجمهورية، مما زادَ الخوف بداخلي وتعمّق حتى صرتُ أرتعدُ كلّما سارَ خلفي أحدهما، أنتظرُ في رعبٍ انقضاضَ الكف الغليظ على قفاي.

حكايات "هاني صلاح" طالب الفنون الجميلة، وصديقي الذي يشاركني السكن، والعضو البارز في التنظيم الشيوعي، زادت من رعبي، كان يحكي لي وهو يقوم بنحت تمثال "نور"، هذه الجميلة التي ماتت حزناً على موت "إبراهيم " زوجها. عن آثار بقايا التعذيب، ودم الجروح، وأورام الهراوات، وشروخ السياط، التي من قسوتها سكنت في صميم الفؤاد.

في صباح هذا اليوم، رأيت "هاني صلاح " يقود مظاهرات الجامعة غير مبالٍ بهذه الذكريات المؤلمة، لكنّها في لحظةٍ تومض من ذاكرتي أنا تتجسد أمامي

فأهرول إلى الداخل مسرعاً، ولم أتوقف ولم أنظر خلفي حتى جلست في مدرج كلية الآداب. أسأل نفسي مراراً وتكراراً لماذا لم أكن معهم؟! لماذا؟ أهم أفضل مني؟! ولكني سرعان ما أجد مبرراً أُطمئِنُ به نفسي، بأنّي لم أولد ثوريّاً ولم أخرج من قبل ذلك في أيّة مظاهرة، إنّما أنا شاعر خلقت كي أكتب أشعاراً، تلهب حماس أولئك المتظاهرين، ولكن نفسي الآن تحقّرُني، تقول لي: إنك جبان حتى أشعارك التي تطمئنُ بها نفسك لم تكتب عليها اسمك، تتحين الفرص كي تلصقها خلسة دون أن يراك أحد. ولكنّي أخاف، ألم تتذكر حكاياته عن أهوال التعذيب، من حكى لك الآن يقود المظاهرات، لا أعرف كيف ينسى تلك الأهوال، كأنّك أنت من تعذبت وليس هو، ولكن كل المشاهد تتجسد أمامي أنا.

– لتكن القوة السلبية، قوة إيجابية، الإنسان بما لديه من إرادة قادر على تحويل هذا الخوف والانكسار إلى قوةٍ إيجابيةٍ.

تلفّتُ حولي فلم أجد أحداً غيري في المدرج، صرتُ مأخوذاً بما سمعته، اقتربت مني عطرها النفّاذ لم أشمّه من قبل، رغم أنّي في الفرقة الثالثة لم يكن لي أصدقاء.

قليلون جداً من يعرفون "فايز سلطان" الطالب أو حتى الشاعر، حتى الذين يعرفونني دائماً ينعتوني بالمنطوي على نفسه، يسألوني لماذا لا تلقي قصائدك الرائعة والجميلة على منبر الجامعة؟!! يقولون انظر إلى من هم أقل منك موهبةً، ماذا يفعلون هم وغيرهم من أولئك المدعون الذين لا علاقة لهم بالشعر. حتى هذه التي تقف أمامي الآن لا أعرفها رغم شغفي إلى المعرفة، هي طفولتي من تحولُ بيني وبينهم، لذا لقبني "خالد صبري" صديق المرحلة الإعدادية والثانوية بملك الصمت، حتى هنا في الجامعة لا أجد نفسي، أخاف من المجهول من نقدهم لأفكاري، يتغير حالي في بلدتي لا أكفّ عن الكلام، ربما لأني أعرف مستوى تفكيرهم وكذلك ردود أفعالهم، لكن هنا يختلف الوضع أعرف قدرتهم على الحوار التي لا تخلو من بعض الكلمات الأجنبية ومصطلحات اللغة والكلمات الراقية، هنا أيضاً نعتوني بملك الصمت، أما في بلدتي لقبوني بالفيلسوف المثقف، ودائماً ما أقصُّ في المواعيد والمجالس العرفية .

- يمكنك أن تحطّمَ الجمودَ الذي انتابك لثلاث سنوات.

نظرتُ مرةً ثانيةً حولي، ربما أحد غيري المقصود بهذه الكلمات، قبل أن تشيرَ بإصبعها نحوي، وتقدم نفسها قائلة:

- نجوان السعيد – الفرقة الثالثة – إعلام.

مالت بجسدها الرشيق نحوي إلى درجةٍ كاد يلامس ثغرها ثغري، ارتعدتُ... تقهقرتُ، لحقتني، سرتُ مأخوذاً بهذه الجرأة التي لم أعهدها من قبل فسرت اتقهقر إلى الخلف حتى التصق ظهري بالمدرج الخشبي وهي مازالت تلاحقني وأنا أبتعد إلى اليسار، انكمشتُ في لحمي، وهي مازالت مائلة نحوي، أرى بوضوح مفرق نهديها، أسرع ببصري إلى أعلى خجلاً؛ فتصدم عيناي بعينيها، مساحات شاسعة من الصفاء تتحديان سماء المدينة، عينان سوداوان واسعتان تظلِّلاهما غابة من الأهداب الطويلة، رُسِمَ فوقهما حاجبان لا شعرة واحدة زائدة، وجهٌ أبيض مدور كبدرٍ في ليلة اكتماله، وصوتٌ ساحرٌ واثقٌ، يعرف ما يقول، ومدى استجابة الآخر له ومدى تأثيره عليه، عادت تتحدث، وعادت ذاكرتي تتهيأ كي تفاجِئَني بنبوءةِ العرافة...

- ستقتلُ أقرب الناس إليك بسبب العشق يا ولدي، مهما حاولت لن تغير قدرك.

أحدثُ نفسي لا أعرفها وهي ليست من أقاربي فلمَ الخوف إذاً من نبوءة هذه العرافة؟! مازالت تتكلم، أهو الحلم... أم هي أحلام يقظتي، التي تجتاحني

وتطوف بي كل مدن العالم؟! مالا أستطيع تحقيقه في عالم الواقع أطلق له العنان في أحلام يقظتي.

هل أنا المقصود بهذا الحديث، ولكن لا أحد غيري في المدرج، لعلّها أحلامي التي أجوس بها خلال جنة، أم هو الواقع! مازالت تتحدث وكأنَّ وجهها عمّا قريب سيلتصق بوجهي وكذلك جسدها

-الذي مرَّ وكان لا يمكن أن يعود ثانيةً، والذي ورثك الخسارة لا يمكن أن تجده ليورثك النجاح، فلا تتحسر على ما مرّ لأن الحسرة مصيبة ونكبة، ليس هناك جدوى من القول ليتني فعلت كذا أو ليتني لم أفعل، ولكن هناك جدوى واحدة هي تحليل الأسباب التي أوقعتك في الصمت والخوف والقلق، وبالتالي ما وصلت إليه. لم أجد لك أصدقاء أو آراء فكرية أو فلسفية أو سياسية، رغم أنّك شاعرٌ مميز ننتظر في لهفةٍ قراءة قصائدك التي تحاول إخفاءَها فلم تكتب اسمك عليها، فلماذا تكتبها وتنشرها إذاً؟!

ما زلت صامتاً كتمثالٍ مرَّ به سائح فتوقف أمامه وظلّ يحاوره حتى يخرج من صمته، من جموده من الزمن المنصرم إلى الزمن الحالي. أطرقتُ برأسي حتى لامست سطح المدرج. كيف عرفتي صمتي وخوفي من الآخرين، كيف عرفت الانهزامية التي تلاحقني في كلِّ مكانٍ هنا، من كلِّ جديد، من كلِّ تكنولوجيا

حتى أنّي أخاف أن أفتح زجاجة المياه الغازية أمام أحدٍ، الأبواب الزجاجية، المصاعد، مُركَبُ النقصِ الذي أشعر به يقزمني دائماً، وأعاني بشدةٍ بسببٍ وبدون سبب، مازالت تتكلم وما زلتُ متوجساً، أحاول جاهداً جمع شتات نفسي، بعد عدة محاولات أقسمت وأنا الآن مصمم على إدراك الحقيقة. بصعوبةٍ بالغةٍ حانت مني التفاتة نحوها فبدت تلاحقني أعراض الخوف، زادت على إثرها دقات قلبي على نحوٍ غير مألوفٍ وشعورٍ قويٍّ بتقلصٍ في العضلات حتى شعرت كأنّي مشلولٌ، صاحبَ ذلك اضطراباتٌ في المعدة وجفافٌ في الحلق وعرقٌ بالجبين والأيدي وطنينٌ بالأذن، وهي مازالت تتحدث:

ـ ملامح الوجه أهم الأجزاء المعبرة، وكذلك العينان وخاصة في حالات الخوف والقلق والفزع والرعب.

ثم مدَّت يدها وأمسكت يدي، وجذبتني كأنَّ سقف القاعة سيهبط فوق رأسي، قدماي غير قادرتين على السير، كلّ شيء توقف تماماً حتى الشجر القابع في طرقات الجامعة، بدت أوراقه تنصت لحديثها كأذنٍ كبيرةٍ، نظرت إليّ وأنا لا أعرف ماذا أقول، تتكلم ولا أسمعها، وقفتْ أمام مجلة الحائط حيث قصيدتي التي كتبتها عن معاناة الشعب بسبب رفع الدعم عن الخبز، بدأت تقرأ وتنظر إليّ، صوتها جميلٌ مغاير تماماً للإلقاء الذي أعرفه.

رغيفٌ مدورٌ[1]

بنصفِ قرشٍ فقط أبتاعُه لأرى ... طبلية البيت لا تخلو من العيشِ
أنا الذي في حياتي لستُ أجهلهُ ... إن لم أجدهُ أراني لجتُ في الطيشِ
على المخابزِ أهوى حسن طلعتهِ ... ولستُ وحدي فإنّ الناس كالجيشِ
فكيف حالي إذا أسعارُه بلغت ... قرشاً لمن يرتدي ثوباً من الخيشِ؟!
تضاعفَ السعرُ حتىّ انتابني وجع ... في القلب يذبحُني يفت أعضائي
ولي عيال ثلاثة وأمهمُو ... قل كيف أسكتُهمُ يا مرسل الداءِ؟!
أراتبي نصفهُ للخبزِ أدفعه؟! ... فكم لأكلٍ وكم للنور والماءِ؟
وإن أتانيِ ضيفٌ كيف أطعمهُ ... إلا بمدّ يدي أو بيع أبنائي
بدرُ البدور لماذا طرت منطلقاً ... ورحت في ألق تعلو على الشهبِ؟
صرنا نراك بعيداً دونما أملٍ ... لمّا غدوت لنا كالكعكةِ الذهبِ
اللهُ يرحمُ من كانوا لنا سلفاً ... كانت معيشتهم لوناً من الطربِ
وأخلفونا أنحيا العمر في كمدٍ ... في كلّ آونةٍ نمشي على لهبِ
حبيب عمري متى الأيامُ تسعدُنا ... بحسنِ طلعتِكُم من غير تسعيرِ؟
متى نراك حنوناً في منزلِنا ... بالسوس إن زرتنا أو بالمساميرِ
فكلنا نبغي رضاك يا أملاً ... أصبحت في هجرة من المساعيرِ
الجوعُ من بأسِه يفتُّ في كبدي ... والفقر من بؤسِه يشلُّ تفكيري

ما أجمل وأعذب القصيدة بصوتها الساحر، خُلقتْ كي تلقي الشعر، بعد أن انتهت قالت بصوتٍ هامسٍ:

ـ غداً ستلقي قصيدتك هذه في ندوتي " من أجل الخبز نهان "

---

[1] قصيدة رغيف مدور للشاعر عبد الكريم عبد الحميد

ـ أنا .... ندوة ... خبز ... إلقاء ... نهان .. مستحيل ...لا.. لا.. مستحيل.

- ألا تعرف القراءة ؟؟ !!

- لا... ولكني لا أستطيع.

- بل تستطيع.

- أعرف نفسي سيتوقف صوتي ويعجز لساني.

- بل تستطيع أن تحطم هذه القيود وهذا الخوف، بانتظارك غداً ولتعلم أنَّ الشعور بالنقص لفظان مترادفان، فليس ثمّة إحساس بالنقص بدون خوف، كما أنّه لا يوجد خوف بدون شعور بالنقص، فهذان الانفعالان يعملان معاً ويستجيب الواحد منهما للآخر، فعندما نحس بالنقص في أثناء وجودنا مع أحد الأشخاص فإنّنا نكون في نفس الوقت خائفين من رأي الآخر فينا، من أنَّ تفكيرهم أعلى أو مقارنة ملابسنا بملابسهم، أو حالتهم الاجتماعية أو لغتهم وهذه المصطلحات اللغويّة والتي غالباً ما تحتوي على بعض الكلمات الأجنبية، للتعبير عن ثقافتهم ورقيهم. في النهاية كن نفسك أنت يا أستاذ فايز ولا تكن غيرك، وإلا أصبحت مهرجاً.

وأخيراً تغلبت على خوفي ونطق لساني دون أن أعالج نبراته:

ـ هل تعرفين اسمي؟!

ـ نعم أعرفك... - فايز سلطان- الفرقة الثالثة قسم تاريخ كلية الآداب، من أفضل شعراء الجامعة قرأت معظم بل كلّ قصائدك "هب أنني " و "رغيف مدور" و "مازال في القلب أشياء تدينه "... إلخ وأنتظر قصائدك بفارغ الصبر وأعرفها حتى بدون كتابة اسمك، أعرف أنّك تعيش في البادية من لهجتك، ربما كانت بداوتك سبباً من أسباب صمتك وانطوائك، إقلاعك عن الحديث، وعدم مشاركتك في الأنشطة الطلابية، حيث تمثل الصحراء باتساعها الهائل من رمالٍ وكثبانٍ وتلالٍ وهضابٍ وأوديةٍ، حيث الليل والنجوم والقمر، عواملٌ كلّها تدعو إلى التأمل الصامت.

غادرتني نجوان السعيد أم غادرتها لا أعرف!! غير أني أصبحت الآن عضواً جديداً في أسرة الخبز أولاً، ومطالب بإلقاء قصيدتي "رغيف مدور" انتابني شعورٌ قاتلٌ تحول إلى سواد أظلم يومي، أحاول أن أهرب من خلال أحلامي، تُطلُ بوجهها المشوه حكايات هاني صلاح تقتحم ذاكرتي بوحشية شبيهة بتلك الليالي المؤلمة، أشعر بنفسي تضيق وبكآبة لا تضاهيها كآبة، أخرج من مبنى الجامعة، ولا أعرف من أيّ باب خرجت، وجدتني أستند على تمثال نهضة مصر كم مرَّ من الوقت وأنا على هذه الحالة، لا أعرف وهل نظر لي أحد على أني تمثال آخَر صُمِّمَ بجواره مثلما قالت نجوان السعيد منذ قليل، يمرُّ يومي

بحساباته هو وليس بتوجيهاتي، الآن أقف عند جبلاية القرود في حديقة الحيوانات. مشتت الذهن لا أعرف إن كنت دفعت ثمن تذكرة الدخول أم إني دخلت مباشرة باعتباره شارع من شوارع الجيزة، لعلَّ الموظف ظلَّ ينادي عليَّ وأنا لا أدري، لعلّهم قالوا له اتركه لعلّه أصم أو مجنون. لا أعرف كم من الوقت مكثته في حديقة الحيوانات، أو أيّ الأماكن توقفت حتى أسماء الشوارع التي سرتُ بها لم أذكرها حتى استوقفني نفير قطار الصعيد العالي وأخرجني من شرودي، الجامعة خلفي أعتقد أنّي قطعت شارع ثروت سيراً بامتداد الجامعة حتى وصلت إلى عبور قضبان السكة الحديد أثناء سير القشاش لعلَّ السائق رآني مصمماً على العبور فأطلق العنان لسرينة القطار المرعبة، التي كادت بالفعل أن تلقي بي أمامه مباشرة. ورغم أنّه كان قريباً جداً مني فلم أسمع صوته العالي وعجلاته التي تأكل القضبان الحديدية انتظرتُ عبوره بالكامل، فكرت كيف كان وضعي إذا لم يطلق نفير التحذير، عبرت القضبان مع أناس قد تجمعوا بجواري أنعطف مع شارع ترعة الزمر من أمام محل عصير القصب، قاصداً سكني بمنطقة أبي قتادة شارع حسن محمد علي، وكلّ خوفي أن يأخذني شرودي فلا أنتبه لشارع الضريح، وأظلُّ أسيراً حتى محطة نصر الدين ثم أكمل سيري في شارع الهرم، تنبهت في اللحظة

الأخيرة إلى الشارع وما أن فتحت باب السكن حتى ظلت كلماتها الأخيرة تدوي في آذني.

ـ تخلّصْ من مخاوفك، ابحث عن الأسباب، فكما للصغار مخاوف، فإن للكبار أيضاً مخاوفهم.

كنت أتوق لسنواتٍ أكبر فيها وأبتعد عن مخاوفي التي لم تنتهِ بعد. فخوفي الأول كان في فترة الطفولة، على ما أعتقد في الصف الثالث الإبتدائي، في الفترة التي تزوّج فيها أبي من "عرب"، لم ينتظر سوى شهور قليلة بعد موت أمّي.

في ليلةٍ صيفيةٍ جاء بها من بلدة بعيدةٍ عن بلدتنا، تركب خلفه على حمارنا الأبيض العالي الذي يشبه البغل، أتذكر ذلك جيداً لأني بعدها اعتدت على عدم رؤية أبي ليلاً ونهاراً، أهيمُ على وجهي طوال النهار في الحقول وفي شوارع وحارات وأزقة البلدة، نهاجم الدبابير ونقضي عليهم ولا نبالي بلسعاتهم نغلق الشقوق عليهم، نصنع لهم قبور وهم أحياء بداخلها. وإن حدث وعدت إلى البيت لم أجد أحداً، أبي وزوجته عرب في غرفتهم بالدور الثاني، والغرفة الثانية التي يفصلها عن غرفة أبي صالة كبيرة لعمي "غالب "، وهو دائماً في الغيط لا يعود منها إلا بعد العشاء، الغيط بالنسبة له عشقه الأبدي، أما أنا

فغرفتي بالأسفل، حصير ومخدة وبطانية اختفت رسومها من أثر السواد، وفي ركن الغرفة توجد طاولة بثلاثة أرجل، أما ملابسي لم تكن كثيرة علقت بمسامير صدئة على الحائط، أوقات يتذكرني أبي فيضع لي بجوار الخبز الجاف بعض الخضار أو جبن، وأوقات كثيرة لا أجد غير الخبز الجاف، تعودت على حياتي الجديدة، وجدت من خلالها حريتي في الخلاء بعيداً عن وجه "عرب"، فكلّ جزء من البيت يذكرني بوجه أمّي الطيب الحنون، ذلك الوجه الملائكي الذي كان حضني وملاذي، أتذكر كلماتها وهي تأخذ وجهي الصغير بين كفيها وتقول في همس ودموعها تنهمر علي خديها .

- نفسي أعيش لما أختار لك بنت الحلال.

أمسح دموعها وأطوف على هذا الوجه الملائكي أغمره بقبلاتي. يزداد البكاء الهامس، سرعان ما يتحول إلى نحيب يتخلله بعض النشيج.

مسكين يا حبيبي .... والله صغير حرام.

وأنا لا أفهم شيئاً، غير أن قلبي الصغير يدنو منها ويحتضنها بقوة ونظل هكذا وقت طويل. إلى أن جاء يوم اعتقدت أنه لم يمر، حيث سمعت صراخاً وعويلاً وشاهدت أبي يلطم خديه، وجليلة الغجرية تتوسط دائرة من الغجر يندبن ويصرخن، ونساء متشحات بالسواد يأتين إلى منزلنا أفواجاً، ثم شاهدت رجال

يأتون بالمحمل الخشبي ويأخذون أمي دون عودة وإلى الأبد، كنت أهيم على وجهي في شوارع البلدة، ثم أعود وأنا متأكد أني سوف أراها تجلس كما كانت، حيث تأخذني في حضنها، وتفتش في وجهي، ثم تضعني في الطست وتدعك جسدي بالماء والصابون، وأنا أصرخ وهي تقول:

- خلاص يا فايز جسمك ورأسك كلها تراب.

ولكني لا أجدها، أجد عمي "غالب " في انتظاري يقوم بتشطيفي وتغيير ملابسي وإطعامي، ثم يذهب إلى الغيط ولا يعود إلا وأنا نائم. حتى جاءت عرب في أول الصيف ولم أجد في وجهها أُلفة ومحبة أمّي فتنافرنا منذ اللحظة الأولى. مر على وجود "عرب" في منزلنا شهرين، وكنت في ذلك اليوم قد تأهبت عصراً للخروج مع الأطفال إلى البحيرة، هناك حيث الجزء البعيد عن البلدة مررنا عبر مدق يمتد إلى جهة الشمال من بلدتنا، يمر من بعيد بمحاذاة المقابر ثم تلة الغجر، وقفت أحدد المكان في تلك البقعة القريبة من ضريح "الشيخ إبراهيم العاشق" الذي وضعوا أمي بداخله، ثم أهالوا فوقها التراب، رفعت يديّ إلى السماء وقرأت لها الفاتحة، كانت الدموع تنهمرُ من عينيّ و"خليل" يربت على كتفي ويمسح دموعي ويجذبني من يدي قائلاً:

ـ العيال وصلوا هناك.

هرولنا خلفهم حتى لحقنا بهم. كانوا قد وصلوا حيث البحيرة والرمال والصخور الكبيرة. جلسنا متفرقين كلّ مجموعة مع بعضها نبني بيوتاً من الرمال ثم نلفها من كلّ الجهات بسورٍ نزرعُ فيها نباتاتٍ وزهوراً ومزارعَ، وبيوتاً أخرى حتى تنتهي البيوت نترك مساحة كبيرة ثم نضع رمال كثيرة حتى تبدو كما في تلة الغجر. وحين مالت الشمس نحو الأفق وتحول لونها إلى قرصٍ برتقالي كبير، ترك الأطفال بيوتهم التي صنعوها وساروا تباعاً في مجموعات إلى البلدة إلى بيوتهم الحقيقية. حيث أمهاتهم التي غالباً ما ستكنَ في انتظارهم، وبعضهنَ تلفُ شوارعَ البلدة إذا ما تأخرنا تنادي عليهم وتدخلهم المنزل. أما أنا تخلفت عنهم فلم يلاحظني أحد. هرعوا أسراباً لتناول العشاء، وبقيت وحدي في وقت الغسق الأرجواني. "أبي" مازال مشغولاً "بعرب" لم يلاحظ غيابي. سندت رأسي على صخرة كبيرة حتى ظهرت أول النجوم، هذه الساعة التي تصحو فيها الأشباح طبقاً لمعتقداتنا القديمة التي توارثناها. وضعت أذني على الأرض كما علمني الأطفال، كانت الرمال باردة عندما لامس نصف وجهي سطحها لسماع ما كانوا يسمعونه، ويحكون عنه في حكاياتهم في ليالي الشتاء المظلمة وكذلك ليالي الصيف القمرية. من طرقات وأنين تحت الأرض. أسمع الآن بوضوح أنيناً غير منتظم مثل أنين

أمي ليلاً وهي متكومة على نفسها تعاني ألم مرضها وألم فراقي. أسمع كذلك طرق خفيف غير منتظم أيضاً على طبل أو دفوف تعلو وتنخفض على صفحة خدي. الذي مازال يلامس الرمال. فجأة أحسستُ بدمدمة الرمال تتحرك من مكان إلى مكان عبر أرض بور تتلاشى فيها آخر خيوط الضياء. حيث تبدو الأشباح أكثر قتامة قبالة السماء ثم تختفي في الظلام. انتظرت ساعة أو ساعتين، ربما أكثر وكأنَّ شيئاً جاثماً فوق صدري يريدُ بقائي في هذه البقعة البعيدة عن البلدة. لم أكن خائفاً، ولم أفكر ساعتها في الخوف، كنت أفكر في أمّي التي ترقد هناك، وهذه الليالي التي كنت أسمع أنينها الخافت، أسند ظهري على الصخرة، أفكر في أناس كانوا يعيشون هنا، وعن أطفال فعلوا مثلي وضعوا آذانهم على صفحة الرمال لسماع الطبول التي تشبه طبول الغجر. أجلس مكاني أرقب طلوع القمر مهياً حواسي لليلٍ مُنتظرٍ غير مبالٍ بما يهجع أمامي وتحت قدمي، أشباحٌ تحرّكُ رمالاً وأتربةً وغباراً. مكانٌ مظلمٌ لا تسمع فيه إلا همساً. لم أحس رعشة خوف من روح شريرة، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على جلستي هذه حتى أدركني النعاس، لا أعرف متى نمت وكم ساعة نمتها مكاني هنا، وقفت ومددت قامتي الصغيرة وأخذت نفساً طويلاً ملأت صدري بهواء البحيرة. ثم سرتُ باتجاه البلدة دون المرور على المقابر أو تلة

الغجر سرت ببطءٍ في مدقات عبر الظلمة الصامتة إلا من همسات تصطدم بأذنيّ. أنظرُ إلى البلدة من بعيد وأستدلُ على اتجاهي بفعل الوهج الباهت للسماء والمنعكس من أضواء المنازل، خطر ببالي أن هذه المرة سوف أجد أمّي في انتظاري وهي تضمني إلى حضنها وتبكي لتأخري حتى هذه الساعة. أتخبطُ في العتمة في مدقات ضيقة وطرق ملتوية وسط أدغال من أعواد الغاب العالية. أُهيئُ حواسي في انتظار أرواحٍ تردُ على أمنيتي بالسلب أو الإيجاب، لم أكن متعجلاً للوصول إلى البلدة، من ثم الوصول إلى البيت، كنت أسير ببطءٍ مهيئاً أذني لأصواتٍ قادمةٍ من المجهول حتى وصلت إلى البلدة، تاركاً خلفي الطريق المختصر الذي سلكته والذي يكثر فيه الشوك وبرك المياه والثعابين. وما أن التحمت قدماي أول الأزقة حتى سمعتُ صوتاً غريباً غير مألوفٍ لم تعتَده أذني من قبل حتى جاءت "عرب" وصرت أسمع هذا الفحيح هذا الصوت الغريب في النهار أوقات وحين يأتي الليل يأتي معه هذا الفحيح. هو صوتٌ لا يشبه البكاء أو الضحك أو العويل أو المشاجرة أو البهجة. وهذا الصوت الذي أسمعه الآن صورةٌ طبق الأصل لما أسمعه في بيتنا. حاولت الانصراف والسير لكن الفضول أبى. كان الصوت يأتي من أحد هذه البيوت التي تكاد نوافذها تلامس أرض الشارع، وقفت مكاني وبدأت أذني ترصد هذا الصوت، حتى

أحدد مكانه بالضبط، الظلامُ شديدٌ وأنا مكاني مازالت أذني تحدد المكان. اقتربتُ ببطءٍ شديدٍ حيث مصدر الصوت، حتى وقفت أمامه تماماً عبر الشباك الذي يسد فراغه قضبان حديدية. نظرت حيث مصدر الصوت، ضوءُ الغرفة باهتٌ، بالكاد رأيت سريراً ينام فوقه شبحٌ لرجلٍ وامرأة على ما يبدو، أحدِّقُ... أفتح عيناي عن آخرهما، امرأة شبه عارية، وضعت رأسي بين قضيبين من حديد، ظللت أحاول أن تخترق عيناي هذه الظلمة، التي لا يكاد ضوؤها يُظهر تفاصيل واضحة. حاولت عيناي جاهدةً اختراق الضوء الضعيف لتبين مصدر هذا الصوت الآخذ في الارتفاع، والذي لم أسمعه من قبل حتى جاءت "عرب "، أحدِّقُ بقوةٍ أفتح عينيّ أدفع برأسي مرة ثانية وثالثة ورابعة، ظللت هكذا دقائق وأنا أحاول ورأسي مازال بين القضيبين، وفي إحدى المرات وأنا أحاول انزلقَ رأسي مني إلى داخل الغرفة، عبر إليهما بكامله أذنيّ وعينيّ وأنفي ووجهي ورأسي، كنتُ قد تبينتُ الموضوعَ تماماً، وعرفت مصدر الصوت. وعندما بدأتُ في العودة وإخراج رأسي من بين القضيبين أبى الخروج ومغادرة عريهما الفاضح، بتمهلٍ شديدٍ سحبت عنقي النحيل واستمتُ في جذب رأسي والخروج به من الغرفة، قبل أن ينهي الرجل جولته، ويكتشف رأسي المعلق بين سجنه، رغم محاولاتي المستمرة والتي

ألهبت أذنيّ، وبدأ الدم يسيل منهما إلا أن رأسي مازال داخل الغرفة، يأبى الخروج، بدأت جولة جديدة أقوى وأشد غير مبالٍ بالألم والدماء، وأعقبتها بمرة أخرى وثانية وثالثة ورابعة. لكن رأسي لم يخرج بعد، بكيت وانهالت دموعي وأنا أحاول جاهداً كتم صوتي. أحتمل الألم وارتطام عظمة فكي بهذا الحديد الملعون. لا أعرف كيف انزلقَ رأسي إلى الداخل وكأنَّ هذين القضيبين قد اتسعا حتى مرَّ رأسي ثم عاد واقترب وأعلن التحدي. كان الرجل قد أنهى جولته، استلقى على ظهره وبطنه وصدره آخذان في الصعود والهبوط بشدة، يأخذ نفسه بصعوبة، كأنّه صعد جبلاً لتوه، يتصبب عرقاً، أما المرأة فقد فردت جسدها بجواره، سمع الرجل أنيني الخافت ومحاولاتي اليائسة للخروج، في أول الأمر حدَّقَ الرجل نحوي غير مصدقٍ، فرك عينيه بقوةٍ وصوّبَ نظره إلى هذا الرأس المعلق، عاود النظر بدهشةٍ إلى هذا الرأس الذي عبر الشارع إلى داخل غرفتهم. بعد لحظات زالت دهشته واستغرابه، وأدرك أن ما يراه حقيقة وليست تخيلات. وبدأ الرجل في النهوض من فوق السرير، مكشراً عن أنيابه كأنّه ذئبٌ جائعٌ يقتربُ من فريسته، وأنا أرتعدُ من الخوف، أقسم له أنّني لم أقصد الفرجة أو حتى المشاهدة، إنما لأتبين مصدر هذا الصوت الغريب. انطلقت كف الرجل، يمينه وشماله تدق الرأس الصغير

المعلق بين الحديد. أقسم أني حتى هذه اللحظة، وهذا السن، لم يأخذ خدي ورأسي ووجهي وأنفي ضرباً مبرحاً كهذا. لم أعرف قوةً وبطشاً مثله حتى الآن. ما زلتُ أتذكر هذه الكف الكبير ذات الأصابع الغليظة وهي تهوي على رأسي المعلق وزوجته تتعلق بيدها وتمنعه وهي تصرخ بأعلى صوتها:

ـ الولد سوف يموت في يدك، الدماء تسيل من كل مكان من رأسه ووجهه.

ثم خرج صوتها يشقُّ فضاءَ الصمتِ، لمّا يئست من زوجها وأدركت قرب نهايتي.

-الحقوني يا ناس يا خلق يا هوووووا.

تكالب الجيران من كلّ مكان، دخلوا البيت وأخذوا الرجل بعيداً، ومن بقي بجواري يسكب الماء على وجهي حتى أعود إلى وعيي مرة أخرى دخلت ثلاث نساء وأخذنَ يمسحن الدماء من وجهي وفمي وبكين وانتحبن من أجلي، ثم سكبوا الماء والصابون وأخذوا رأسي المتورمة برفق إلى الخارج.

ظلَّ عقلي قابعاً هناك في الزمن المنصرم حتى أعياني، وعندما عدت وجدت نفسي مستلقياً فوق سريري بملابسي التي خرجت بها. وباب الشقة مفتوح والظلام دامس، ورأسي ملتهبٌ، قمت من فوري وأغلقت باب الشقة ثم ضغطتُ مفتاح النور فغمر الضوء المكان. كان الصمت في انتظاري بعد

الظلام. بحثت عن "هاني صلاح" أو "خليل سعد" أو "سيد كمال"، فلم أجد أحداً، حتى الغرف الأخرى مغلقة، لعلّهم بالخارج ولعلَّ "خليل وسيد" ذهبا إلى أحد أقاربهم، أما "هاني" لعلّه يجوسُ شوارع القاهرة مطلقاً العنان لصيحاته وهم يحملونه فوق أعناقهم، أو لعلّهم ألقوا القبض عليه وهو الآن في قسم الشرطة، يخضعُ للتحقيق وهذه الأيدي الكبيرة ذات الأصبع الغليظة تهوي عليه مجدد. وآلات التعذيب تبدأ عملها في جسده المنهك.

تذكرت ما حدث لي منذ بداية اليوم، عندما اشتعلت هذه الاحتجاجات حتى ملأت الحرم الجامعي ثم انطلق بها هاني إلى الشارع، أتذكر ما قالته "نجوان السعيد"، أسرة الخبز أولاً التي أصبحت عضواً بها رغم أنفي، وقصيدتي "رغيفٌ مدور"، التي طلبت مني نجوان إلقاءَها غداً، في هذه الوقفة الاحتجاجية داخل الجامعة. لا أعرف كم الوقت الآن عقارب الساعة وحدها قادرة على كشف الوقت. ولكن أين هي الساعة؟ أبحث عنها تحت المخدة، لعلّها في درج المكتب، ها هي إنّها العاشرة مساء. أسأل نفسي هل يمكنني إلقاء قصيدتي، سيكونون في انتظاري من حكى عنهم هاني من لهم هذه القدرة الغريبة على البطش والإرعاب، التي تصل إلى حد عدم السيطرة على جسدك فيتصرف كل عضو على حِدة، دون حاجة إلى العقل الغائب في

غياهب اللاوعي. عزمت أمري على عدم الاشتراك، ليس هذا فقط بل مغادرة العاصمة غداً في الصباح الباكر، ولِمَ في الصباح بل الآن. ولكن الآن هل أجد مواصلات، الموضوع صعب، فذهابي الآن يجعلني صيداً سهلاً في أيديهم والفجر ليس ببعيد، سوف أغادر ربما هدأت الأمور بعد انتهاء إجازة نصف العام. سوف أجهز حقيبة سفري الآن، قبل كلّ شيء سوف أضع تمثال "نور" هدية "هاني صلاح" لي، من الفجر أغادر السكن والقاهرة، ولكن الندوة ونجوان السعيد، ربما أخذوها مع الأخرين، نَمْ أو كُلْ شيئاً فأنت لم تأكل منذ الصباح وأخرجْ من عقلك الندوة والقصيدة وكلَّ شيء ما عدا العودة إلى البلدة.

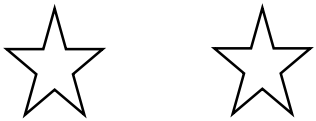

تلةُ الغجرِ
الفصل الثاني

صباحٌ مفعمٌ بالدم، كم صباحاً سيمر قبل أن يمر هذا الصباح، قبل أن تبزغ شمسُ حلمٍ طيبٍ لا يعرف أو ربما تناسى ما حدث هذا الصباح. لست أدري الآن، لماذا لم يرق قلب الخال، تستطيع الآن أن تتأكد أنها انطفأت إلى الأبد، تستطيع الآن أن تتلمس آثار خطواتك، كيف خرجت متسللاً تتوخى الحذر، أنت وهم تمشون على رؤوس أصابعكم تتخفون وتتحينون الفرصة وهو لا يعرف ولا يتخيل أن المكرَ والخيانة والخسة كلها تأتي منك أنت. كيف يطاوعك قلبك يا "سيف" فعل هذا وأنت تنتزع ضياء عين ابن أختك؟! كم هو قاسٍ قلبك أيها الشرير. كان عليَّ أن أتحسس رأسي، حتى أدرك أنني لا أحلم وأن هذا واقع. قال أبي:

ـ لا يلزمك الكثير هنا ارحل وعش في مدنك، أرضنا لا ينبت فيها غرسك.

لم أعد قادراً على فعل شيء منذ أن لطمت اليد الكبيرة ذات الأصابع الغليظة رأسي ووجهي. ليتني لم أغادر، ليتني شاركت "نجوان السعيد" ندوتها وألقيتُ قصيدتي وقهرتُ خوفي. هو الجمر يتقد الآن، تختلط الأشياء والشوارع، ثم يعلو جسدي كشاهد قبر، يغير عليه الريح، فألوذ بالموتى، لم أعد قادراً على فعل أيّ شيء، هي الفوضى، حتى حلمك في الحبِّ سطت عليه غجريةٌ بنبوءةٍ قد تكون وهماً وسراباً، كان عليّ أن أكون ذراعه التي تتدافع عنه، كان

يركض بكلّ ما أعطاه الزمن من قوة وخوف، وحين حاول أن ينظر خلفه ليطمئن إلى المسافة التي تفصله عن تلك الأيدي.

منذ زمنٍ طويلٍ، لم يصحُ صباحٌ مثل هذا الصباح، استيقظَ معه الصبارُ، وتململت الحجارة في الصحارى، وألقت التلال برؤوسها تحت سفوح الجبال، في يوم بعيد لا أعرف تفاصيله، وأحياناً يخيل لي أن الزمن طوي هذه الصفحة، التي كانت بسبب خلاف على قطعة أرض في حمارية الدم، وعلى إثرها فقد "سيف" عينه، ولكن يعقل أن يأخذ ثأره من زوج أخته أو ابن أخته، رغم أن الواقعة يحملها أكثر من عشرين رجل، وليس شخصاً واحداً بعينه، طلقة خرطوش أطلقها مجهول على الإسفلت للتهديد والردع شظية من عشرات الشظايا طالت الكثير، منهم "سيف" اخترقت عينه. في ظلِّ الغياب الكامل للمفاجأة، الغياب الكامل للثأر، كان طموح "عامر" يكبر، لم يكن يقاسمه هذا المجد وهذا التفوق أحد في البلدة أو البلاد الأخرة أو حتى في المحافظة، الآن على أعتاب التخرج من كلية الطب بامتياز. سعى إلى حلمه منذ طفولته، حتى يصبح طبيب عيون، حلمه منذ كان طفلاً صغيراً، أن يكون طبيب عيون حتى يعالج عين خاله "سيف"، ولكن "سيف" سار لثأره، من عينه التي لا تبصر وتذكر ثأره القديم، رغم أنه أخذ دية عينه من

أبناء عمومته في جلسة عرفية للقبيلة، وتصالح مع "السعدي" زوج أخته، الذي أقسم ويده على المصحف الشريف إنّه لم يطلق النار ولم يكن يحمل سلاحه وإنه بريء هو وأهل بيته وأخوته من هذه التهمة. ولكن "صفاء" زوجة "سيف" لا تريد صلح خرجت تصرخ وتولول:

ـ لا تصالح على عينك، لا تصالح حتى تفقع عين أحسنهم، لدينا من الأموال الكثير، ولكن هل كلّ أموال العالم تصلح لشراء عين، قلت لك لا تصالح، والعين بالعين والبادي أظلم. ظلّت "فاطمة" أخته أعواماً وأعواماً وهي ترتعد كلما أشعلت "صفاء" النار وأعادت الواقعة من جديد، التي كانت نسياً منسياً، لسنوات طويلة ظلت عين أخيها الثانية توده وتخدم "صفاء" رغم أعبائها المتزايدة، تركت "فاطمة" ميراثها، لم تأخذه من "سيف"، لعلَّ ذلك يشفع لها عنده، ويُوصل حبل الود الذي توصله باستمرار.

الآن يتذكر الجميع ما ظل يردده: "وهل؟ يغلق الجرح القديم على صديد."

الليل، الصمت، الشوارع، الحارات، الأزقة، أفاعي تزحف باحثةً عن كارثة، عن نار لم تشتعل بعد، عن حكايات قديمة لم تمت بعد، سترتعد لها قامات. شياطين جهنم انتشرت في حمارية الدم، حيث بدأ "سيف العوضي" ينفخ فيها، ليلة واحدة بين خطوة الظلمة الأولى ومطلع الفجر، ليلة واحدة ويده تزحف

وينتصب إبهامها كرمح صغير، ينتفض ويدور في مكانه يحلم، ساعات قليلة ويأخذ ثأره حيث يخترق إبهامه جدار العين قبل أن يرتطم بجواف العظام، انتشر ضوءٌ ساطعٌ كما لو أنه يطل من حلمٍ غريبٍ. فتح "سيف" عينه السليمة، بإمكانه الآن أن يفتحها.

اعتدل "عامر السعدي" الذي مازال نائماً في سريره، أحسَّ بحركةٍ غريبةٍ تدور في عينه اليمنى هل هي رفة؟ وضع يده عليها، استعاذَ بالله من الشيطان الرجيم، لا يعرف لماذا يتحسس عينه يغمضها فيعم الظلام، يفتحها فيعود الضوءُ ساطعاً في غرفته، ويده مازالت فوق عينه اليمنى، خلال لحظة قصيرة محتشدة بالانفعالات والأسئلة التي لا أجوبة لها انتزع الغطاء من فوق جسده، وقت قصير ارتدى ملابسه صلى الفجر، دقائق واستقرت حقيبته في يده، لم يكن هناك متسعٌ من الوقت، المسافة بين البلدة والطريق السريع بعيدة، والرمال تحت قدميه باردة، والمسافة التي يقطعها كأنها تعود أمامه من جديد، سمع أصواتاً مألوفة خلفه تأمره بالتوقف.

- انتظر... ما أخذه أبوك وأعمامك سنأخذه منك الآن.

هل توقف قلبه عن النبض، أم أنّه يخفق بشدة لا يعرف، أسرعت خطواته تلقائياً لكنها لم تكن كافية، أطلق ساقيه للريح، وهم خلفه، ركض بكلّ

ما أعطاه الزمن من قوة، وعندما حاول أن ينظر خلفة ليحدد المسافة التي تفصله عنهم، كانوا من كل حدب يأتون، أنقضت أحد المخالب فانتزعت المعطف عن جسده وطارت حقيبته على الأرض وتمزقت الكتب والكراسات أشلاء وطارت والأقلام وبعض ملابسه بعيداً، ترك كلّ شيء وظلَّ يعدو، وهم من خلفه قبل أن يفاجَأ بكمينٍ آخر متربص أمامه، استوقفوه. أكثر من يدٍ تدفعه مرات ثم مرات ثم سقط على الرمال، برودة يناير تتغلغل في جسده تنفذ إلى أضلاعه، لكنه لم يحس بها، جثم على كل جزء من جسده رجل بعد أن صلبوه على الرمال، أكثر من عشرة رجال شلوا حركته تماماً، مَن جثم فوق كلّ ذراع وكلّ ساق وكلّ فخذ، وهناك مَن جثم فوق بطنه وصدره ومَن أمسك رأسه، أحس الآن بصقيع الشتاء يستقر في رئتيه. لحظات طويلة أم قصيرة لم يكن يعرف ما يحدث له. بدا كلّ ما حوله يهدأ إلا دقات قلبه ظلت تعوي بين قفصه الصدري وهو يحاول بكلّ قوة التخلص من هؤلاء الجاثمين فوق كلّ جزء من جسده المصلوب على الرمال. في هذه اللحظة استطاع أن يشاهد بزوغ الشمس التي طلت عليه من بين الجاثمين فوقه. صوت خاله المألوف يأتي من بعيد، يحاول الفرار ولكن هذه الكتل البشرية الجاثمة فوقه تفوق قوة جسده المصلوب عشرات المرات. الصوت يقترب عالياً.

ـ لا منقذ لك ولا ملجأ لك اليوم، العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص.

خرج صوته واهناً ضعيفاً:

ـ لم آخذ منك شيئاً يا خال وكذلك أبي، إنما هي شظية وكان هناك الكثير من الطرفين بجوارك، إنما هي مشيئة الله.

- لا تحاول كما قلت لك لا مفر ولا ملجأ لك، انتظرت طويلاً وصرت أضحوكة بين الناس، نعتوني بالأعور.

أشار إلى أحد الواقفون بجوار رأس المصلوب، فجاء له بحجرين ضخمين، وضعهما عن يمين وشمال رأس عامر فبدا ككماشة تمنعه من الحركة. جلس على ركبتيه خلف رأسه قرّب الحجرين حتى التصقا بأذنيه وعامر مازال يصرخ ويستجدي خاله الظالم الذي شمَّرَ عن ساعديه، وهو يستعد قائلاً:

ـ "ولكم في القصاص حياة".

- أيّ قصاصٍ هذا الذي تقتصّه مني، لست الفاعل، عُدْ لرشدك يا خال، واتركني وشأني، اتركني لحال سبيلي، تعرف أني كنت طفلاً وقتها، خذ حقك ممن فعل.

- إنما آخذ ثأري من أفضلكم، ممن هو ندٌّ لي، أنا لست شخصاً عادياً.

- هذا ظلم يا خال، عُدْ لعقلك أنا ابن أختك، ماذا ستقول للأخت؟!

- أقول لها إنّي رحيم، عيني باثنتين ولكني سآخذ واحدة.

- قبلتُ الدية وصالحت وعفوت فلماذا؟

ـ الدية ستعود لكم.

من خلف الجاثم فوق صدره رأى خاله بقامته المديدة، وهو يدفع بحركة واحدة هذا الرجل ليأخذ مكانه، جلسَ فوق صدره، ثنى ركبتيه غاصتا في الرمال بجوار رقبته.

أخرج من جيبه مخرزاً حديدياً، له ساقٌ مدببة من الصلب، نظر إليه ثم ألقاه بجواره، ثم أخرج مفكاً طويلاً قربه من العين، كأنّ العين ذعرت وفرت إلى الداخل للابتعاد عن هذا الخطر القادم، نظر إليه ألقاه أيضاً بجواره، ثم فردَ أصابع يده اليمنى كأنّه يحاول الاختيار بين السبابة والإبهام، ثم شرّع إبهامه في الفضاء كحربة صغيرة ثم هوى بكلِّ قوته نحو هدفه الذي لم يخطئه.

الصوت يعلو يتسلق الفضاء يعبر إلى البلدة التي ما زالت تغط في سبات عميق لم يفارقها بعد وخم الليل. والأرض تحته لم تنشق، والصوت ما زال يدوي، وإيقاع خطواتهم فوقه كأنّهم يرقصون. والجسد ما زال مصلوباً فوق الرمال

كغزالةٍ تكالب عليها الأسود. دارت عينيه في المكان لعلّه يرى "السعدي" أباه أو "فاطمة" أمه أو أحد أعمامه، يزداد صدى صراخه.

عاد وصوب إبهامه مرة ثانية انطلقَ كسهمٍ ليمرق من فوق أنف المصلوب ويعبر المسافة كومضة برق ليخترق جدار العين إلى الداخل، ثم مرة وثالثة ورابعة.

الدمُ حارٌ وحارقٌ يتدفقُ من جدار العين، يتطاير ويستقر على الرمال التي امتزجت به وبهذا الصباح وهذه الشمس التي تبدو أكثر دموية، وهذه الأصابع التي امتدت لتقطف الضياء، ضياء العين ونورها. والأسئلة كلها تبدو واضحة، حين ابتعد بظهره إلى الوراء وأصابعه الدموية يتساقط منها ضياء العين، يعود مرة أخرى فيمسك بوجهه وينطلق إبهامه فيطعنها عدة طعنات متلاحقة، ثم يغرس إصبعه ويلفه فيها دورة كاملة ثم أخرى. باحثاً عن نور عن ضياء عن ضوء آخَر لعلّه يسكن في زاوية العين أو في جدارها أو لعلّه هرب إلى الداخل. يفيض الدم حتى تمتلئ كفة يده، يغرس الأدوات التي كانت معه إلى الداخل في العين الفارغة فيهوي أكثر من نجم. يقف "سيف" يمسح ما تبقى من ضياء العين في ملابسه، بينما الكلاب ما زالوا جاثمين فوقه، يضربه أحدهم بعصاه فترتطم رأسه بهذا الحجر فيغشى عليه وتتوقف

صرخاته. يهرول "السعدي" من بعيد، وتعلو صرخات أمه بين حارات البلدة فتتعثر في ملابسها، ثم تقف وتهرول وتتعثر من جديد فتنتصب واقفة، صرخاتها تشق الفضاء، حرقة قلبها قادرة على صهر جليد العالم، يأتي صوتها قوياً يسمعه من في الحقول من خلف البيوت المغلقة، حتى "صفاء" تسمعه بوضوح تضرب صدرها ورأسها، ربما أصابها الندم، أو الخوف مما سيحدث، تعرف أن "السعدي" لن يصمت، وأن ما بقلب "فاطمة" سوف يشعل البلدة لسنوات عجاف، تسأل نفسها هل تكفي عين "سيف" الوحيدة؟ أم سيتركون "سيف" الأعور المعيوب ويأخذون ثأرهم من "حامد" ابنها الذي على وشك الزواج. تضرب صدرها وتنتفض فجأة وهي تصرخ:

ـ "حامد"... لا.. "حامد" لا.. لا لا لا.

تضرب خديها وترتمي على الأرض تتقلب في روث البهائم، تدفن رأسها بين فخذيها وذراعيها، ثم يخرجُ صوتها وهِنٌ ضعيفٌ كأنّ هناك شخص ما يخنقها:

ـ ليتني لم أتكلم، ليته انقطع قبل أن أشعل النار في "سيف"، ليتني أموت قبل أن أرى انتقام "فاطمة" لدرة قلبها "عامر".

تتوقف لحظة كأنّها تذكرت شيئاً، تعاود اللطم من جديد.

- "عامر" الطيب المحترم، أين كان عقلي؟ "عامر" الذي يقبل يدي ورأسي كلما قابلني! "عامر" الذي لا يعرف العيب! ماذا أقول للبلدة وكيف أتعامل مع ناسها و"عامر" زهرتها وقلبها؟! الكل يعشقه، ولكن أين كان عقلك يا "سيف"، هو ابن أختك، التي تركت لك كلّ شيء، من أجل عينك، أنت تعرف أنه بريء.

البلدة كلها تخرج خلف "فاطمة"، حتى "عرب" تأخذ بيدها كلما تعثرت، مازالت تصرخ، يخرج صوتها الباكي ليُبكي كل من يسمعه:

ـ يا كافر ... يا كافر.. يا كاااااااااااااااااااااااافر. تركت لك كل شيء، طول عمري خادمة لك ولزوجتك ولأولادك. ماذا فعل لك "السعدي" وماذا فعل لك "عامر" يومها كان ابن أربع سنوات؟! يا ظالم يا كاااااااااااااااااااااافر.

"عامر" يا "عامر" يا قلب أمك، سترى انتقام أمك لك وسيرى كلّ العالم، ماذا سأفعل ليس "بسيف" فقط وإنما كل من شارك كلّ من تجسس كل من وشى حتى بكلمة واحدة، أقسم لك.

تتردد صرخاتها ترتطم بصدرها، تصل إليه، تلقي بالحجارة بعيداً، تأخذ رأسه فوق صدرها الذي يئن وينتفض بقوة يسمعه "عامر" تمسح له الدماء التي ما زالت تسيل على وجهه. يخرج صوتها مصحوبة بفزعٍ رهيبٍ لما شاهدت عينه

التي أصبحت مجرد دائرة فارغة. تنظر مكان عينه وتصرخ وتلطم خديها، يخرج صوتها مبحوحاً من هول ما رأته الآن:

ـ كنت أخذت عيني أنا يا كاااافر يا كاااااااااااااااافر.

يأخذه "السعدي" منها ويعصب عينه بعمامته البيضاء، ثم يأخذه في حضنه، يضمه بقوة ويديه ترتجفان حول جسده، يبدو صامتاً، والكلّ يسمع نحيبَ وبكاءَ قلبه.

ما زالت يده ترتجف حول جسد "عامر" الذي لفَّ ذراعه حول عنق أبيه، وبدت خطواته مكسورة، وهما يمضيان باتجاه البلدة بين الكلاب، فلاذوا بالفرار.

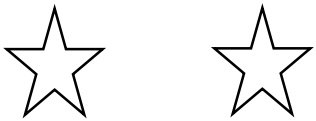

تلةُ الغجرِ
الفصل الثالث

أقسم أنَّ أكثر من يدٍ تطرق الباب الآن، أقسم على ذلك، فليس نومي غزلاني، فما أثقله في العادة، أضف على ذلك الأحداث التي شاهدتها البلدة، سبعة أيام بلياليهم والكلّ محرومٌ من النوم، هروب "سيف" وابنه وأخوته وكلّ من شارك، حرقوا بيوتهم وأرضهم، وقُطِعَ إبهام ثلاثة، قالوا أنّهم شاركوا من بعيد، ما زال الكلّ يرتعد، بشاعة الحادث، لم يتخيل أحد ما حدث، هل يوجد بشرٌ بهذه القسوة؟!! يخترقُ إصبعه المشدود كرمحٍ جدارَ العين، يلفه في العين عدة مرات، دورات كاملة ثم يأخذ المخرز ويضربه بقوة في العين، يلفه أيضاً في زوايا العين. الدماء تتطاير من وسط الدائرة الفارغة، يعاود الكرة مرة أخرى ثم يسأل أخوته القابعين خلفه فوق الجسد المصلوب على الرمال.

- انظروا هل يوجد بها شيء يمكن إصلاحه؟!

ينظر "محارب"... ويهتف باستغراب:

ـ لا توجد عين أصلاً، مجرد دائرة فارغة!!

ما زالت الطرقات تدوي، أكثر من يدٍ تدق الباب الخارجي، أعرف أنَّ يداً واحدةً غير كافية لتعيدني إلى ذلك الصحو، حتى هذه اللحظة لا أعرف ما يحدث في الخارج. لا شيء يشير إلى أني قد صحوت... أهو الحلم؟؟

عبثاً حاولت عيناي البحث عن الاتجاه الصحيح الذي سأسلكه حتى باب الغرفة. يخيل لي أني أقف وسط الغرفة، أدور حول نفسي للحظة أشعر أني سوف أقع، هل وقعت؟ لم أتأكد من ذلك، ربما حدث بالفعل، الآن وبالدليل القاطع الذي لا يحتمل أي خطأ أقف بجوار السرير، وسط الظلام الدامس أبحث عن الباب، أهو الحلم وأني ما زلت نائماً في سريري. بسرعة تحسست ذاكرتي وجدتها تعمل. مرّت أحداث الليلة الماضية إن كانت قد مرّت بالفعل، فقد آويت إلى فراشي عقب صلاة العشاء مباشرة، وماذا أفعل في بلدة احتلها الصمت والمخاوف الليلية وهجرها الأفضلون بحثاً عن بلاد لم تعرف القتل. هل مرَّ الليل أمام مازلنا في منتصفه. لا أعرف عقارب الساعة وحدها هي القادرة على كشف الوقت. امتدت يدي تتحسس وجهي حتى وصلت إلى فتحتيّ أنفي، شهيق وزفير. حتماً انتزاعي من النوم بهذه الطريقة يجعلني فريسةً للأوهام. يصارع عقلي الزمن باحثاً عن أسهل طريقة تعيد توازني. وصل الأمر مباشرة من العقل إلى يدي التي تحسست الحائط بجانبي حتى وصلت إلى الشباك. عالجت قفله بسهولة فانفتح على مصراعيه، زحفت رأسي خارجه إلى الفضاء الخارجي. يفاجئني الوجه الشيطاني شاهراً كفه الكبير ذات الأصابع الغليظة تتأهب وأنا أنظرُ نحوها، ثم تهبط كصاعقةٍ نحو رأسي

فتلهب أذني ورأسي وجزء من خدي أصرخ. عبثاً تحاول عيناي رؤية شيءٍ، تحملقُ في الظلمة الشاسعة، ظلمة الصحراء التي تزحف حتى جدار المنزل. كلُّ الأحداث التي أتذكرها والتي لم أتذكرها تدور كأنجم ضالة ترتطم بجواف الذاكرة، ثم تنقض على جمجمتي بأجنحتها السوداء ومخالبها الحادة، ترتفع حتى تلامس السماء ثم تنقض من جديد. ما زال الوجه الشيطاني وكفه الكبير يرطم وجهي في الشباك المفتوح على مصراعيه، ويلهب رأسي الصغير، ما زلت جاهداً أجذب عنقي إلى الخلف، والرأس المتألم تحاول الهروب إلى الداخل. الطرقات من الخارج أصبحت عنيفة تخترق جمجمتي. أهو الحلم؟ أفتح عينيّ عن آخرهما، الآن بإمكاني أن أفتحهما، أعتدلُ في السرير، كلّ شيء ثقيل الرأس الجسد، كلّ أعضاء جسدي تشتكي، النافذة بجانبي مغلقة، ما بين غفوات النوم المتكررة ومحاولة الصحو ترتطم رأسي بالحائط. حانت مني التفاتة نحو النافذة المغلقة. أصابتني رجفة عنيفة، ألم أفتحها منذ قليل!! أم أنّه الحلم؟! خلال لحظة قصيرة مليئة بالانفعالات والأسئلة، انسلخ جسدي من تحت الغطاء. تلك المسافة القصيرة التي تفصلني عن باب الغرفة بدت بعيدة، كأنّي أعدو فوق تلة الغجر باتجاه البحيرة والمسافة التي أقطعها نحو الباب الموصد تعود من جديد، أتشبثُ بقدميّ في الأرض يحلّقُ ذراعي في

الفضاء لمحاولة إعادة توازن جسمي. تنشط ذاكرتي لتتذكر آخر حديثٍ سمعته الليلة الماضية، إن كانت قد مرت، بين "أبي" وزوجته "عرب"

- المحروس ابنك، كانت إجازته يومين ربما ثلاث، في أسوء الأحوال أربعة! سبحان مغير الأحوال.

- يا ستي ما حصل كان صعباً.

- وبسلامته مسافر، ولا أجل سفره؟

- لم يقل شيئاً عن سفره؟

ـ لم يقل؟!.

أتخيل وجهها العبوس وهي تشير برأسها نحو غرفتي، ربما كان هذا حلماً أيضاً، وربما كانت حقيقة. أطاحت يدي ببعض الكتب من فوق المكتب، الحمد لله لم يقع الفانوس، الظلام من حولي شديد لا أرى حتى يدي، أتخيل لو وقع الفانوس وتحطم زجاجه الخارجي وكذلك زجاج لمبة الجاز التي بداخله. ربما وجدت زجاجة اللمبة نمرة عشرة في البلدة، أما الزجاج الخارجي للفانوس فلابد من الذهاب إلى المدينة. الطَرقُ ما زال مستمراً، لا أعرف سبباً واحداً يجعل أبي أو حتى زوجته لا يفتحا الباب، مهما حدث ومهما كان الطارقُ ومهما كانت الظروف أو الأسباب، ما إن يدخلا غرفتهما لا يخرجان إلا في

الصباح. حتى أنا نفسي كنت أتسلّقُ الجدار الخلفي للمنزل ثم أهبط في الحَوشِ وأدعو الله، أن يكون الباب الخلفي نسياً منسياً مثلي، ومرات كثيرة كنت أنام في الحَوشِ.

كيف لعلبة الثقاب هذه أن تختفي في مثل هذه الظروف. أعرف أن أكثر من يدٍ تطرق الباب، وأنا أقف مكاني لا أرى شيئاً حتى يدي أو باب غرفتي فكيف أهبط السلم إلى الباب الخارجي وأرى من هذا المتعجل. الكهرباء نادراً ما تأتي في أيام الشتاء، وخاصة في يناير الممطر حيث أسطح البيوت التي تعجُّ بالقش وأعواد الحطب، والبيوت المتلاصقة تجعل من أقل شرارة من ماس كهربائي حريقاً يجتاح البلدة كلها، ربما هذا ما أخافَ الحكومة فجعلها تقطع الكهرباء باستمرار.

أحاول جاهداً أن أستجمعَ كلَّ ما سمعته بالأمس إن كان مرَّ عبثاً لم أعد قادراً على التذكر. تقترب يدي من حافة الفانوس أتحسس جسمه في محاولة لعدم وقوعه، حتى لا ينكسر، وتجعل "عرب" من كسره حكاية لا تنتهي. فهي علمت أبي كلمات يظلُّ يرددها في المناسبات، وعلى الملأ.

- شيل الحاجة تشيلك... شيل الورق يشيلك.

حتى وإن وجد أبي ورقةً كان يحتفظ بها في صندوقه ورغم عدم حاجته لها، الآن يظل يردد:

ـ شيل الورق إيه....

ويترك البقية لعرب تردد خلفه:

ـ يشيلك

ويظلان هكذا. وإذا كان القول للملأ، يطلب منهم تكملة الحكمة، ويطلب منهم التركيز والاستماع والحفظ.

العَرقُ يغمرُ جبهتي رغم برد يناير، ينحدر إلى أسفل، أشعر به الآن فوق صدري. ما زالت يداي تتحسس المكان بجانب الفانوس بحثاً عن علبة الثقاب. آه... تذكرت بقية حديث "عرب" ليلة أمس إن كانت قد مرّت.

- والله كبرت يا سلطان وشاخ عودك على غير أوانه؟!

وأنتِ ما زلتِ صغيرة، انظري إلى نفسك في المرآة، شعرك شاب ووجهك جلده كرمش.

- أنا فعلاً صغيرة وفي عز صحتي، انظر لنفسك أنت.

الطرقات تزداد ضراوة وعنفاً، لابد أنهم تنبهوا لوجود اليد الحديدية الضخمة المنقوش عليها تنين ضخم يفتح فاهَه ويغرق الطارق في نيرانه. دائماً يتفاخر

أبي بهذه اليد. يقول أنّه اشتراها من مزاد بيعٍ لبعض ممتلكات قصر محمد علي باشا. الطرقات تزداد بقوة لم آلفها من قبل. أهُمْ رجال الشرطة؟! أكاد أجزم أن هذه الأيدي هي بالطبع أيدي مخبرين، لماذا لم أعرف هذا من قبل، هي بالفعل أيديهم القادرة على البطش والإرعاب. وكذلك الإصرار الغريب يوحي أيضاً بذلك.

كالعادة أهل البلدة لن يخبروا على الجاني، وكذلك "السعدي" أو حتى "عامر". فمن يبلغ الشرطة غير قادر على أخذ ثأره. وهم أقوياء يستطيعون أخذ ثأرهم متى شاؤوا، ليسوا بحاجةٍ إلى أحدٍ. في هذه الحالة سأجد نفسي متهماً بجريمةٍ لم أفعلها، سوف أجد أيديهم تشير نحوي.

- أنت المتهم الأول في فقع عين "عامر السعدي".

- لا وألف لا... لم ولن تلصقوا بي هذه الجريمة الشنعاء.

- كلّ الشبهات تدور حولك، ونحن لم نلصق التهم بأحد، لقد فعلت فعلتك حتى تعيقه عن التفوق... ألم تتمنى ذلك مراراً؟!

ـ لم أفعل... صحيح أن هذا التفوق كان يشعل في قلبي الغيرة والحسد. ولكن هذا لم يصل إلى هذه الدرجة من البشاعة واللا إنسانية.

- إذاً هذا اعتراف منك.. سجّل اعترافه، ودعه يوقع أدناه.

- لم أفعل.... هناك فرق بين التمني والفعل. ولكنكم كلما عجزتم عن إيجاد الفاعل الحقيقي، دفعتم بآخر ليكون كبش فداء بدلاً من البحث والتحري. الطرقات لم تنتهِ، سيلٌ لا آخِر له من الأيدي تدق الباب في وقت واحد. أستجمع في حلقي صرخة قوية، ثم أطلقتها صوب النافذة.

-مَنْ بالخارج... مَنْ؟!

ثم أعقبتها بثانية وثالثة. ولكن لا أحد يجيب. لابد أنهم رجال الشرطة، من يكون غيرهم إذاً. كم من الوقت سيمر دون أن أعرف من الطارق، لست أدري لماذا إذاً وبالذات تختفي هذه العلبة الآن، هل لأني في حاجة لها، وهل صحيح ما يقوله الناس. إذا احتجت لشيءٍ ضاع؟!! كانت تصطدم بيدي مراراً وألقي بها بعيداً ثم تأتي وتصطدم بيدي مرة أخرى ألقي بها بعيداً وتعود من جديد. تصطدم يدي بالفانوس ويطير في الفضاء من ارتفاع سطح المكتب إلى السرير، ولكني والحمد لله لم أسمع تحطم الزجاج. أكاد أجن لماذا الآن تختفي وقد بحثت أصابعي في كلّ مكان.

قبل عام من الآن، وفي ليلةٍ مظلمةٍ مثل هذه الليلة تماماً، دخلوا على " علّام " وذبحوه فوق سريره، لم يشعر بهم أحد، تركوه يأخذ الأرض التي تحاذي أرضه من أرض حمرية الدم ثم أضاف عليها المزيد من هنا وهناك، إلى أن بلغ

سخطهم حد المدى. هذه المرة علّلَ بعضهم أنهم أعادوا التوازن الذي اختل لصالح "علام".

كلّ ما أتمناه الآن أن تعثر أصابعي على هذه العلبة الملعونة. الولوج إلى النوم مبكراً في بلدةٍ مثل بلدتنا بمثابة الهروب، أم الصحو يضعك مشاهداً أو مشاركاً في مملكة الشر هذه، حيث أحداث القتل بداخلي حكايات توشك أن تخرج وتحكي عمراً كاد أن يذهب صمتاً. لماذا لا أستطيع أن أصبح مثلهم؟! ما الذي أستطيع غرسه في هذه الأرض. مخيف ذلك الذي حدث، ومخيف ذلك الذي سيحدث.

أخيراً تنجح أصابعي في الوصول إلى علبة الثقاب، محصورة في الركن البعيد للمكتب والحائط. كأنّها ذعرت من لمسة أصابعي وقررت الفرار بعيداً، ولكن أصابعي لم تعطِها الفرصة للتنفيذ. بحرصٍ شديدٍ بدأتُ في إخراج عوداً ثم أغلقتها بحذرٍ، أشعلت العود، فجأة تمتلئ الغرفة بالأضواء، أخذت الفانوس الملقى فوق السرير فتحت بابه الزجاجي بسرعةٍ ثم رفعت زجاجة اللمبة ونجحت في إشعالها قبل أن ينطفئ عود الثقاب، وضعت الزجاجة ثم أغلقت باب الفانوس، أرقب ظلي الممتد دون حراك بارتفاع الدولاب، الظلال تتراقص حولي، والفئران تسرع بالاختباء، تعودت على رؤية عيونهم البراقة

الصفيرة كرأس عود الثقاب، وهي تنظر نحوي، لعلّها تقول مَنْ هذا؟! فهي لم تعتَد وجودي، أنام على موسيقا صوتها وهي تقرض الأخشاب، كنجار يتعجل منشاره للانتهاء من عمله. أحمل الفانوس وأفتح باب غرفتي الذي تعذر عليّ منذ قليل، وأهبط السلم الهواء النقي يلفح وجهي وينعش أنفاسي، تغادر أنفي رائحة الهواء المحبوس في غرفتي، أعتقد أن الوقت ما زال ليلاً، أسمع عصف الريح وانكسار الموج على شاطئ البحيرة، من بعيد يأتي نباح الكلاب مختلطاً بعواء الذئاب. ظلمة تجوس فيها أرواح قلقة في هذا الوقت المتأخر من الليل. أسبوعٌ كاملٌ والكهرباء منقطعة عن البلدة، لا أحد يعرف هل هذا عقاب من الحكومة على صمت الأهالي، أم أنه الخوف من الماس الكهربائي. اليد الحديدية تدوي فوق الباب، مع عددٍ لا بأس به من الأيدي، لعلَّ الطارق استنفد صبره. صوت الرياح تعوي في كلّ مكان، تلسعني برودتها، أنتفض كعصفورٍ مبتلٍ، تيار الهواء يكاد أن يطفئ الفانوس.

يخرج صوتي ملء حنجرتي من جديد.

- مَنْ، مَنْ بالخارج، مَنْ؟!

أطلقها مرة ثانية وثالثة. انتظرت.. بعد لحظات من تأهب أذني، يأتي من

الخارج صوت رقيق لامرأةٍ تحاول قدر الإمكان أن ترفع صوتها، حتى يمرق إلى الداخل.

- أنا يا أستاذ "فايز".

مرّت لحظاتٌ من الصمت قطعها عواء ذئبٍ، بدا انفعال صوتها واضحاً وهي تنطق اسمي، كأنّها بذلت مجهوداً خارقاً حتى يخترق صوتها هذا الجدار، أو كأنّها ملت الانتظار. من المرة الأولى لم تميّز أذني هذا الصوت، بدا غريباً غير مألوف. لقد تعودنا نحن أهل الصحراء وحتى أهل الريف، أن نميز الأصوات، ونعرف من المنادي قبل أن نراه، ولكن ميزت أذني بما لا يدع مجالاً للشك، جمال وعذوبة ونعومة هذا الصوت حاولت جاهداً أن أضيف على صوتي بعض من الهيبة.

- مَنْ بالخارج؟!

تحفزت أذني وتأهبت كأنّه تحركت من جسدي وعبرت الباب لتحديد صاحبة الصوت، هذه المرة أتى الصوت واضحاً وجميلاً كما بدأ.

- أنا "شامية" يا أستاذ "فايز".

هدأ الليل فجأة، وتوقف عصف الريح وانكسار الموج على شاطئ البحيرة ونباح الكلاب وعواء الذئاب كأنّه لم يكن، هدأت مخاوفي، كأنّه حلم طيب

نفد إلى قلبي فبدت حكاياته المرعبة سراباً، واستكان الوجه الشيطاني وتصلّبت الكف الكبير ذات الأصابع الغليظة، وتلاشي الصقيع وبدا الليل كصيف. أشعر بالسكينة، أهو الحلم. أنظرُ حولي أحمل الفانوس خلف الباب، لحظة سلام طوقتني بطيور ملونة وأغاني دافئة. هناك شيء غريب يحدث، لا أعرف سبباً واضحاً لهذه الغبطة وهذا السلام والتصالح النفسي، وكأنّي مهيأ لاستقبال حبٍّ جديدٍ، آه حبّ جديد الآن يعود كل شيء إلى ما كان قبله، تطفو فوق سطح الذاكرة أقوال العرافة:

ـ إنّه العشق يا ولدي، سوف تشعر به لحظتها، ستحس بسعادةٍ تدغدغ جسدك، وسكينةٍ تحتويك دون مقدمات، ستشعر أنك ملاك، وستمحو كلّ متاعب قلبك دون أن تدري، قبل أن تراها ستعشقها، وستقتل من أجلها أقرب الناس، مسكين يا ولدي كتب عليك العشق قبل أن تولد.

في خوفٍ من نبوءة العرافة اقتربت من الباب بحذرٍ، ضغطتُ بكتفي على الباب وجذبتُ الترباس الضخم إلى الخلف، دوّى صوته الصدِئ وكذلك المفصلات كأنّها تبكي وتشتكي طول السنون وكثرة الإهمال، ينفتح الباب قليلاً لدخول شخص واحد. رجعت إلى الخلف مسافة تكفي لوقوف الطارق أمامي، أرفع الفانوس في يدي حتى أتبين ملامح القادم، تدخل امرأة ضخمة

تجبرني على التقهقر إلى الخلف، ثم تدخل من بعدها "تباهي" المرأة العجوز الشمطاء، التي لا تعترف بعمرها وشيخوختها وتظل تردد على مسامع الجميع أنها ما زالت صبية صغيرة، حتى أطلقَ عليها الجميع اسم "تباهي"، لا أعرف اسمها الحقيقي قالوا أم "رياض" وقالوا "فاطمة".

منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ استوقفتني عند ساحة البلدة وسألتني في تعجب وحيرة:

- لماذا لا يستقيم ظلي يا أستاذ "فايز"؟!

فقلت لها:

-يستقيم ظلك حين يستقيم عودك يا حاجة.

ليتني ما قلت. أمطرتني بوابلٍ من الشتائم وهي تقول:

– عودي يا أستاذ، لا أنت لا أستاذ ولا حاجة، ولا تعرف حاجة في الدنيا، هو في عود في البلدة مثل عودي ملفوف ومدور.

من هي إذاً صاحبة الصوت العذب، أهو الحلم؟! أم مجرد تخيلات وأوهام؟! ولكن هذه المرأة الضخمة ربما رأيتها، آه أعتقد أن منزلها في الجهة الشرقية للبلدة عند منزلنا التي به المواشي، للحظات ظننت أنني خدعت وأن هذا الصوت الملائكي لا يمكن أن يخرج من فاه هاتين الوقفتين أمامي، وأنه في الغالب والأرجح كان من صنع خيالي، وفجأة تدخل صاحبة الصوت تقف في

مواجهتي تماماً، أرفع يدي بالفانوس لأتبين ملامح وجهها، تمدُ يدها وترفع الشال القطيفة الأخضر الذي يغطي وجهها. توقف قلبي عن الخفقان، كاد الدم يتجمد في عروقي. وقفت لحظات دون حراك، جمدني شك وحيرة، حبست أنفاسي حتى لا تخرج صرخة. فتاة في شرخ الشباب، رقيقة الجسم، لدنة القوام، طرية، جميلة ذات شعر أسود طويل يتدلى فوق ظهرها، يجذبني بريق العينين الخضراوين الواسعتين اللتين ينعكس فيهما ضوء الفانوس، فيضوي كلّ الوجه ضياء ونور. ملامح الوجه دقيقة وفاتنة. بشرة بيضاء في لون الحليب لا أثر للزينة أو مساحيق التجميل، لوحة سبحانه ما أبدعها. بحركة آلية رفعت الفانوس، أقربه من الوجه الفاتن الرائع. لا يمكن أن تكون هذه حقيقة، هو الحلم إذاً لا محالة. بدون كلام تمتد كف يدي أمام وجهها وتتحرك إلى اليمين واليسار عدة مرات، كأعمى تختبر إبصاره، يرتسم في عينيها الخضراوين علامات قلق، تحركت ساقاها الجميلتان خطوة إلى الخلف، اهتزَّ على أثرها المفاجئ نهداها الكرويان الناضجان. إنها حقيقة لا خيال، أيمكن لهذه البلدة التي احتلها الغبار والمخاوف الليلية وحمرية الدم والتي تتوشح شوارعها بالصمت والقتل والكراهية والحقد. بلدة لم تشبه البلاد. لا أصدق أن هذه البلدة تحوي بين ذراعيها كل هذا الجمال، وكلّ هذه

الفتنة. أهي أحلام يقظتي التي أهرب إليها ثم أموت في نهايتها، ثم أعود من جديد في مكان آخر وأحلم من جديد، كل البلاد غزوتها بأحلامي. بالأمس كنت في باريس التي سافرت إليها في الحقيقة في الصيف الماضي في الحي اللاتيني مع امرأةٍ أذابت بحرارة جسدها برودة روحي، ثم قبلها كنت في بوخارست مع فتاة وضعت فيها كل مقاييس الجمال، قبل أن يقتلني حبيبها. بدت كأنها نائمة وهي تحرك يدها البيضاء الجميلة، ثم حركت شفتاها الحمراوان وأردفت قائلة:

ـ عمك لا يقوى على النهوض يريد مساعدتك.

هل الأموات تصحو وتعود إلى الحياة من جديد، أحسَّت يداي برغبة قوية في لمسها ولكني لم أجرؤ على ذلك. خرج صوتي واهناً متقطعاً.

– نووووور .. نور ..هل أنت ،"نور"؟!

ـ لا "شامية"!

لا شيء يموت، كلّ ما طمره التراب يعاود الاستيقاظ من جديد. "نور" الوجه الملائكي كما وصفها الشعراء، وجذبتنا الحكايات. أقسم أنّها "نور" كما نحتها "هاني صلاح" لما سمع حكايتها التي لم تمت معها وإنما ظلّت تتناقلها وتسردها الألسن عبر كلّ العصور. ما زلتُ أحدِّقُ مذهولاً، أيمكن لهذه

البلدة التي غادرها الطيبون بحثاً عن بلاد لم تعرف القتل بعد، أن تحوي هذه اللوحة الإلهية. أنظر خلفها لعلّي أجد ما يثبت الحقيقة في عقلي، الفضاء المعتم يلتحم بنجومه المتعبة، سرعان ما عادت عيناي لتستقر على هذا الوجه الفاتن، أتمتمُ في خفوت.

– سبحانك ما أبدعك ربي، سبحانك!!

الوجه مدورٌ كبدرٍ أبيض ناصع في لون الحليب، مشبّع بحمرةٍ طبيعيةٍ لا أثر للزينة، رسم فوق العينين الخضراوين حاجبين رقيقين لا شعرة واحدة زائدة، شفتان صغيرتان كحبة فراولة، أنفٌ صغير، وأذنان تظهران من تحت الشال الأخضر كقطعتي حلوى، شعرٌ أسود كسواد هذه الليلة، يخرج مسترسلاً على ظهرها إلى أسفل، عنقها نحيل ناصع، وصدرٌ نافرٌ كرويٌّ يكاد يقفز من فتحة فستانها، أبحرُ في العينين الخضراوين، لا أمل لي في النجاة. حيث تضرب نبوءة العرافة تجويف الذاكرة.

يخرج صوتها العذب النائم:

– أستاذ "فايز" عمك في حالة صعبة، يريدك في الحال.

كل جوارحي فقدت وظائفها وبدأت تحدق في هذا الوجه مثلي، لم تعد تعرف أيّ شيء. يخرج صوتها يغلب عليه قلق حقيقي.

– عمك في حالة تسمم ويحتاج أن ينقل إلى المستشفى الآن!

خرج صوتي ناعساً متقطعاً.

– عمي مَن... هل لي عم؟!

لوّحتُ بيدي أمام وجهها، كنائمٍ يحاولُ التأكد من حقيقة تجتاز حلمه. تلتفت حولها حيث تقف "تباهي" والمرأة الضخمة، لعلّها لم تتوقع ذلك، بدت وكأنّها تصارع ترددها للحظات طويلة، قبل أن تقول في سرعة تغالب بها نفسها.

– عمك "غالب"!

لا يعني لي الاسم أيّ شيء وكأني أسمعه لأول مرة، أتمتمُ عمي "غالب"، أحاول إنعاش ذاكرتي المعطلة، ربما سمعت هذا الاسم منذ زمن أو ربما منذ الطفولة. لم تساعدني ذاكرتي فهي وكل أعضائي محتشدة معي الآن لرؤية هذا المخلوق السماوي البديع. أهو الحلم وأنني ما زلت في سريري.

في لحظةٍ كومضة برق، يمرق الاسم بل هوادة أو رحمة، ترتسم الصورة أمامي. عمي "غالب" بجسده الضخم كعملاق، وشاربه الكثيف، تخرج الكلمات من فمي.

– وما الذي يطلبه عمي "غالب" في هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

تأملتني بعينيها الخضراوين، بينما وجهها يحمل تساؤلاً وعتاباً، قائلة:

ـ قبل أن ينام جهز موتور الرش، كان ينوي رش الطماطم، ويبدو على ما أعتقد أنه قطع كيس المبيد، كيس "أوكس فين" أو "لانت"، وأن ما بداخل الكيس من هواء مع بعض المسحوق دخل فمه، وهو الآن في حالة تسمم.

أفكر في الرفض، أفكر في الذهاب إلى غرفة أبي وأظل أدق الباب حتى يصحو. أنظر إلى الخارج حيث البرد والماء الآسن الذي خلفته الأمطار على مدار الأيام السبعة، أكوام السباخ، الكلاب الضالة التي تعج بها البلدة والتي لا تشعر بوجودها إلا وأسنانها تطبق على لحمك، عواء الذئاب، هذا الوقت المتأخر. أنظر في عينيها مباشرة يختفي ما بداخلي من قلق. أتمنى أن أكون بجانبها مهما كانت الظروف، حتى آخر نفس. أقول دون تردد:

– لا تقلقي عمي سيتحسن بعد أخذ بعض المضادات سيتقيأ، إن شاء الله سنذهب إلى طبيب الوحدة الصحية في طريقنا، ربما وجدنا عنده مضادات تسمم، وإذا لم نجد مضادات سنذهب إلى المستشفى العام.

هل آخذها معي حيث تنتظرني في النور حتى أغير ملابسي. أم أتركها في الظلام مع "تباهي" والمرأة الضخمة. في النهاية استأذنتها للحظات، سحبت الضوء معي، وقبل أن أصعد السلم، لم أستطِع منع رأسي من الالتفات إلى

الخلف، حيث لمحت تلك الابتسامة الصغيرة التي بدت على شفتيها. بسرعة البرق أرتدي أثقل ملابسي، أضع في جيب الجاكيت حافظة نقودي. وأهرول نحوها بكلّ قوتي. أستقر أمامها تمنحني ابتسامةً عذبةً. أتركُ الفانوس في ركن الصالة، ثم أضع علبة الثقاب في جيبي وأغلق الباب خلفي، يفاجئني البرد القارص بلسعاته المتكررة على وجهي، تتوغل وتنغرس في خلايا الوجه. المرأة البدينة تخبُّ في عباءتها بجوار "تباهي" أتوقع أن تكون "تباهي" هي التي جاءت بها لتساعدها في الطرق، أقسم الآن أن هذه الطرقات العنيفة كانت من هذه اليد الضخمة التي تفوق المطرقة، دخلنا ثلاثتنا بعد أن استأذنت المرأة البدينة، في شارع آخر. القمر المتأخر في طلوعه، يخرج الآن على استحياء، يخرج من بعض الغيوم، يفرش نوره على المزروعات وهامات النخيل وشجر الكافور وأسطح البيوت، كلّ الأشياء تنبض بالحياة، المرأة الشمطاء على آخر ظلنا تخبُّ في عباءتها، محاولة اللحاق بنا، مراراً ترفع قامتها حتى يظلّ عودها مستقيماً. أنتفض لسماع عواء ذئب، بدا وكأنّه قريب، وكأنّها رأت انتفاضة روحي، قالت.

– لا تخف هو بعيد ولكن صمت الليل يقرب الأصوات.

لمحتُ نصفَ نور وجهها وجزءاً من ابتسامتها، لم تمر جملتها مرور الكرام بل استوقفها عقلي، وبدأ يرددها صمت الليل يقرب الأصوات، قلت لها:

– لست خائفاً ولي صولات وجولات هنا منذ كنت طفل، لم يتجاوز التسعة أعوام. ولكن ما أجمل قولك، صمت الليل يقرب الأصوات إنّه تعبير جميل يحسه شاعر مثلي، ويؤكد أن قائله على قدرٍ من التعليم.

صمتت لحظة كأنّها أرادت محو هذه الفترة من حياتها، ثم تحدثت.

– أشكرك أستاذ "فايز" على مجاملتك، نعم وصلت للصف الثاني الثانوي، نجحت وكنت الأولى على مدرستي، كان هذا في السنة الماضية. هل أنت شاعر؟؟

– هي حقيقة وليست مجاملة وأسلوب الكلام يحدد ثقافة المتحدث، نعم أنا شاعر أكتب الشعر منذ أن بدأت معاناتي مع "عرب" زوجة أبي، حيث الخلاء والبحيرة وطبيعة الحقول والوحدة جعلت مني شاعراً، كنت في طفولتي أعشق البلدة بطبيعتها أما الآن أكره البقاء فيها.

– الظروف متشابهة، الموت في حد ذاته مصيبة إذا كان الأب أو الأم.

صمتت فجأة لم تكمل حديثها ربما تذكرت شيئاً سبب لها مرارةً، مازلتُ ألمح نصف نور وجهها وهي تمشي بجانبي.

منذ زمن ليس بقريب وبالتحديد قبل دخولي الجامعة، كان يحلو لي دائما أن أجوس في الحقول بعد الغروب، في لحظات الشفق والغسق الأرجواني، حتى العشاء فلا أحب أن يصحبني أحد في رحلتي اليومية، حيث موسيقى المساء في الحقول، نقيق الضفادع وصرير جنادب وهمس النسيم في غصون الشجر، موسيقى المساءات الشتوية، دائماً أبدو مشغولاً بتدبر الجمال وأنا سائر على نفس الطريق، أستمع إلى صفير الرياح الباردة وهي تعصف بالأشجار، والسماء العابسة التي لا تخلو من السحاب الأسود. أما الآن فلا أحس سوى بجمالها ولا أسمع غير همس أنفاسها وترانيم صوتها التي تخرج على استحياء من وقت إلى آخر. نعبر أزقة البلدة الضيقة العتيقة، فبلدتنا تقع على شكل قطعتين يفصل الجرن بينهما، الجزء الأول على شكل مثلث متساوي الساقين، حيث يبدأ رأس المثلث عند الوحدة الصحية التي تقع عند أول الطريق الزراعي الملتوي كثعبانٍ ضخمٍ يخترق الحقول إلى جهة الشرق حتى الطريق العام المؤدي إلى كفر الشيخ المحافظة، ثم يمتد مخترقاً البلدة حتى منتصفها حيث يلتوي جهة الجنوب الغربي حيث الكفور القري الأخرى، ثم يمتد المثلث حتى الجرن الذي يفصل الجزء الأول عن الثاني، ثم يأتي الجزء الثاني أقرب ما يكون إلى شكل متوازي الأضلاع تفصله مساحة من الأراضي

الصحراوية عن المقابر جهة الغرب، ثم تلة الغجر، أما في الشمال البحيرة، تفصلها عن البلدة مساحة شاسعة من أرض البراري. نعبر الجرن حيث أكوام السِباخ والكلاب الضالة، الآن تظهر البيوت الطينية المواجهة للجرن تأنُّ بما تحمله من أكوام القش والحطب وعيدان الذرة الجافة. تحاول "تَباهي" في إصرار اللحاق بنا، أسمع صوت قدميها وهي تخبُّ في عباءتها الطويلة، ألتفت نحوها، ألمحُ جزءاً من ضوء وجهها الأبيض الناصع. أسمعُ لهاثَ العجوز وهي تحاول اللحاق بنا. صمتها المفاجئ وترددي الذي مازلت أعاني منه لا يعطني أي مساحة للكلام. كنت سمعت من "أبي" في إحدى زياراته لي في القاهرة أن عمي "غالب" سيتزوج قريباً ولكني لم أحضر عرسه، ولم يتح لي الوقت أو الظروف زيارة البلدة، على الرغم من حبي للأرض والزرع والبحيرة، إلا إنني أكره وجه "عرب"، ولكني لو علمت أن بلدتي تحوي بين أحضانها كلّ هذا الجمال، لمكثتُ أمام بابها كي أشاهد وأتدبر فقط هذا الجمال ولتذهب "عرب" والجامعة والدراسة إلى الجحيم. دون أي تمهيد تضرب نبوءة العرافة تجاويف الذاكرة، وكأنّه خنجر غرس نصله فجأة في جنبي. هل تكون "شامية" العشيقة، وعمي "غالب" المقتول، هل.. هل..؟

كنا قد تجاوزنا الجرن إلى الطريق الذي يفصل البلدة عن أرض البراري، وهو الضلع الشمالي من المثلث، فمنزل عمي يخرج تماماً عن نطاق البلدة ويتوحد هناك بعيداً في حضن البحيرة، تنزلق قدمي في حفرة بها ماء آسن، يختل توازني، أكاد أقع أضرب بذراعي الفضاء في محاولة فاشلة لإعادة توازن الجسد المائل للسقوط. تلحق بي في اللحظة الأخيرة، أجدني في أحضانها تقف حائلاً بيني وبين السقوط، تمتد يدي رغماً عني كغريق تمسك بخصرها، شعرت بنعومة لحمها الطري تحت ملابسها. تلحق بنا "تَباهي"، وأسمع صوتها الساخر.

- أمسك نفسك يا أستاذ اصلب عودك؟!

ثم تتوالى ضحكاتها الساخرة المتشفية. أعلم أن سبب ضحكاتها الشامتة ما قلته لها عن سبب اعوجاج ظلها، صدق "خليل" حين قال:

- مهما طالت الأيام والسنون لن تنسى ما قلته لها ستتذكرك بالكره وتتمنى لك المصائب.

نعم هذه حقيقة ظهرت الآن، والسبب أننا لا نقبل الرأي الآخر، ولا نعترف بالنقد ولا نقبله إذا كان ضدنا، هو مبدأ واحد نسير عليه، مع أو ضد، منغلقون على أنفسنا على ذواتنا.

عند رأس المثلث بالقرب من الوحدة الصحية انحرفنا إلى الطريق المؤدي إلى منزل عمي والذي ينتهي إلى البحيرة. القمر يفرش نوره بعد خروجه من سحابةٍ سوداء، مساحات شاسعة من مزارع الشيح وعباد القمر بزهوره الملونة. تمنحني لمحة من نور وجهها وابتسامة عذبة وترنيمة صوتٍ عشقته.

– قدمك سليمة... أنت كويس؟

خرج صوتي مضطرباً:

ـ الحمد لله بخير.

أطلقت العنان لخطواتها، أصبحت البلدة خلفنا دون أن نصادف مخلوقاً واحداً. القمر يخرج من ثنايا السحب السابحة، يفرد نوره على المزروعات التي تمتد عارية. لا أثر للبيوت، بعض عشش البوص، الطريق ينساب كنهر من الثلوج البيضاء تحت نور القمر الأخذ في الازدياد. أسمع الآن بوضوح الموج الهادر وهو يضرب شاطئ البحيرة، أصوات الأمواج المتلاحقة، نقترب أكثر ونحن نهبط المنحدر، تبدو صفحتها اللامعة في الظهور كلما انحدرنا إلى أسفل. في مثل هذا الشهر غالباً ما تكون مياه البحيرة غاضبة. القمر يدخل في جفون سوداء عريضة، ثم تتبدى جسور الظلال أجفان خافتة كأنما يبزغ

من حمم براكين. أخيراً يظهر منزل عمي "غالب" بدت قمته من أعلى، ثم يعلو كلما هبطنا، يرتفع ببطءٍ كلما اقتربنا منه.

أشعر بتقلصٍ في معدتي، أهو الجوع؟! لم أتناول العشاء أو تناولت لا أعرف. أضغط بقوة فوق منطقةٍ ما بالقلب، آخذ نفساً عميقاً ممتلئاً بروائح الليل وملح البحيرة. أنظر إلى نصف الوجه المضاء، وأشعر فجأة أن لحياتي معنى، وأني لست الشخص الحالم المهمش الذي يعيش على حافة المدن، أدرك الآن بأنه أصبح لي أرض ووطن أقيم عليها وأغرس فيها جذوري، ولكن هذا مرهون بالدم، مثلما قالت:

ـ بسبب العشق ستقتل أقرب الناس.

كانت أصابعها تتلاعب بين قطع الودع المتناثرة فوق الرمال في استغراقٍ كاملٍ، ثم يكتسي صوتها طابعاً مثيراً للرهبة والخوف، كأنّها قادمة من زمن آخرٍ، وحين رفعت رأسها نحوي رأيت عيناها تلمعان كأنّها بالفعل ترى أحداثاً في زمنٍ لم يأتِ بعد، ثم سمعتها تقول:

ـ مثلما أرى الآن لحظة موته.

كنت خائفاً وتمنيت أن تتوقف عن الكلام أو تأخذني أمي من أمامها. دخلت في حضن أمي، ورغم توسلات أمي لم تتوقف، استمرت تحدِّقُ فيَّ بعينيها

المتوهجتين. كانت ملامح وجهها غريبة، مثل وجوه غابرة في التاريخ، وجوه من زمن بعيد، مثل تلك المحفورة على واجهة المعابد والمقابر والأعمدة الحجرية، صوتها من أثر الانفعال أصبح واهناً وقد تغير وهج عينيها وتحولت نبرات صوتها، كنت مأخوذاً بهذا التحول وبلغة حديثها التي تبدو غير مناسبة مع هيئتها وثقافتها وهي تقول:

ـ مسكين يا ولدي من اللحظة الأولى التي تنظر فيها نحوها، سوف تذوب عشقاً. هو مولانا العشق يا ولدي دائماً ما يبدأ الأمر باضطراب في الهرمونات، حيث أكد الطب على ذلك، يفرز المخ هرموناً يجعلنا يا ولدي نشعر بالانجذاب نحو شخصٍ ما، ويكون ذلك نوعاً من الكيمياء المتبادلة بين اثنين، ثم يتعدى الأمر الكيمياء.

لا تتعجب يا ولدي فلم أدرس العلم في المدارس، ولكني تعلمت الكثير والكثير.

– تفضل يا أستاذ "فايز"... أستاذ "فايز" تفضل. وصلنا.

لم أشعر بنفسي، أمسكت بيدي قائلة:

ـ أستاذ "فايز" انتظر فقد تجاوزنا المنزل.

أعادني صوتها الساحر إلى الحاضر. نظرت في وجهها المضيء كبدرٍ في ليلة اكتماله، كنا قد تجاوزنا البيت واقتربنا كثيراً من شاطئ البحيرة. فتحت البوابة الكبيرة. ولكن أين "تَباهي" ومتى تركناها وأين تسكن؟ ربما في عشش البوص دخلت أمامي، ترفع الشال القطيفة عن رأسها، تمسكه في يدها وتسير أمامي تعبر الحديقة وتدخل المنزل، شعرها الليليّ المُسدلِ على ظهرها، طويلٌ يتخطى مؤخرتها إلى أسفل. أهو الحلم، أم هو زمن نبوءة العرافة، وهل المقتول عمي، وأنا قاتله. سرت قشعريرة في جسدي وشملتني رجفة عنيفة وصل مداها إلى روحي. لا أعرف هل هذه الرجفة التي اجتاحتني ومازالت بفعل القتل أم بفعل صوت عمي الأجش العالي الذي خرج:

ـ أنت فين يا فاااااااايز؟

يبدو أنه سمع صوت الباب. أو وقع أقدامنا، كان نائماً على ظهره فوق السرير عملاقاً تتلاحق أنفاسه، أشمُّ رائحة "الإكس فين" ذلك المبيد الزراعي القاتل الذي أنهى مراراً حياة أولئك المعذبون، من ظلم وتعنت وجور آبائهم حين رفضوا زواجهم ممن أحبوا. أنظرُ إليه وتختلط عاطفتي وحبي له إلى غيرة أو حقد أو كره لا أعرف له سبباً. فعمي "غالب" سندٌ قويٌّ ضد هجمات "عرب"، التي لم تكن لتتوقف لولا تدخله. كانت ستجنّ يوم أخذ عمي أوراقي وقدم

لي بالتعليم الثانوي ومن بعدها الجامعة. وما فعله بالرجل ذو الوجه الشيطاني والكف الكبير، البلدة كلّها تعمل له ألف حساب، ما أخذه من أرض الحمراية وأضافه إلى أرضنا كان كبير.

– لماذا تقف عندك هكذا؟ اِلحقني يا بني اِلحقني يا "فايز".

لم أشعر بنفسي فقد هرولت إليه، ربما تخلصت من مشاعري الآن، أخذتُ قدميه من فوق السرير، وضعتهم فوق الأرض ثم أدخلتُ ذراعي تحت إبطه ثم سند عليّ وقام، هرولت به ناحية العربة الحديدية كانت "شامية" قد سبقتني وأخذت بعض الأشياء وقامت بفرش حصير في أرضية العربة، وفتحت بابها. أسندت عمي حتى جلس بمؤخرته على حافة العربة ثم تحرك معتمداً على قوة ذراعيه حتى بلغ منتصفها، فرد ساقاه وسند بظهره على وسادة تفصله عن مقدمة العربة. جلست "شامية" بجواره، أسرعت بإحضار الحمار، وضعت خطافيّ العربة في الحلقتين الحديدين ثم أسرعت بجر الحمار خرجنا من الباب. أغلقت البوابة أرعبني منظر "رعد وفهد"، أطلقت سراحهما قبل أن تركب بجوار عمي لم ينتظرني الحمار حتى أغلق البوابة اِنطلقَ يعدو بسرعةٍ وهو يصعد المنحدر هرولت خلفه حتى أمسكت لجامه وصعدنا، أتاني صوتها العذب من الخلف.

– يا أستاذ "فايز" أركب وأجلس على المقعد الحديدي، وأمسك اللجام، وأتركه هو يعرف الطريق. تذكرت أنَّ لنا أرض بجوار الوحدة الصحية القابعة هناك في الخلاء عند أول الطريق الزراعي. الحمار يخبُّ بقدميه على الطريق الترابي غير الممهد والعربة ترتفع وتنخفض بشدة والحمار يعدو بكلِّ قوته نحو هدفه الذي يعرفه أفضل مني وأنا جالس على صندوق حديدي في مقدمة العربة الحديدية، أحاول كبح جماحه بشدِّ اللجام ولكنّه لا يأبه لمحاولاتي المتكررة. هل يعرف أن صاحبه تسمم وأنّه على وشك الموت، فيجري بهذه السرعة التي من الممكن أن تنقلب العربة رغم الظلام يعرف طريقه، القمر يخرج للحظات من بين السحب السوداء فينير الطريق، ثم سرعان ما يدخل مرة أخرى فيسود الظلام.

أحاول السيطرة على صوتي:

ـ ماذا حدث يا عمي؟

ـ يا "فايز" نار في بطني، في بطني نار وكل ذلك بسبب كيس مبيد واحد، قطعته بأسناني.

– يا عمي، ألم يكن بجوارك شفرة موس حلاقة أو سكينة أو مطواتك التي لا تفارق جيبك؟ كيف تقطع كيس المبيد بأسنانك

ـ كانت معي المطواة، ولكن ساعة القدر يعمي البصر.

- الليل يا عمي ربنا جعله للراحة، والنهار أفضل.

- يا "فايز" تعرف من زمن بعيد أن أبوك ترك الأرض وكل شيء على كاهلي. وأنا بمفردي لا أستطيع الانتظار حتى الصباح، من قبل الفجر أجهز الأشياء وأعلق الحمار في العربة. آه... آآآآآآآه... نار في بطني في بطني نااار.

يأتي صوتها وهي تحاول أن تطمئنه قائلة:

ـ استحمل خلاص اقتربنا من الوصول.

- والعمر اقترب من النهاية.

يرقص قلبي رغم حزني وتأثري بما قال. جذبت طرف اللجام بيدي اليسرى، كان الحمار أسرع مني حيث دخل الحمار الوحدة حيث الباب الحديدي مفتوحاً على مصراعيه. توقف الحمار تماماً أمام طرقة طويلة تتعاقب عليها حجرات كثيرة، كل واحدة كتب عليها لافتة، حجرة الاستقبال الأخرى الطبيب وهناك الصيدلية ومعمل. ضوء شاحب يخرج من لمبة جاز وضعت في فانوس زجاجي كبير يتدلى من إحدى الأشجار. الفانوس يشبه فانوسنا الذي طالما تشدّق به أبي في كثير من المناسبات وأنّه الوحيد في البلدة وربما البلاد الأخرى، حيث اشتراه من وزير السلطان قلاووظ شخصياً. ورغم

محاولات المستمرة في تصحيح ما يقول، من أن السلطان قلاووظ إنما هو سلطان من زمن دولة المماليك يفصلنا عن زمنه أكثر من خمسمائة عام. كان يزمجر وينعتني بالجاهل ويتمادى في القول أنّه لا يوجد منه سوى القليل في المستشفيات الكبيرة والمصالح الحكومية. أتذكر يوم جاء به في إحدى زياراته لمسجد الحسين. عبارة عن مئذنة مسجد له قاعدة من الصفيح القوي تضم أربعة جوانب من الزجاج، ثلاثة منها ثابتة والرابعة متحركة تفتح وتغلق بواسطة مفصلات صغيرة. من خلالها توضع لمبة الجاز، القمة عبارة عن مئذنة بثلاثة قباء يوضع الهلال عند القمة ومن خلال طرفيّ الهلال يوضع سلك من الصلب يمسك منه الفانوس. أخرجني صوت عمي الأجش من شرودي، وهو يقول:

ـ مسكن الدكتور هناك عند هذا الشباك الذي يخرج منه النور.

أسرعتُ نحوه وقد ملأتُ في فمي صرخة قوية لدرجة أفزعتني:

ـ يا دكتور ... يا دكتور.

وقبل أن أصل إلى الشباك أخذت حجراً ليس بصغير، ثم طرقت بقوة لا تتناسب مع تعليمي وأنا أصيح:

ـ يا دكتور.. يا دكتور.. معي حالة تسمم.

ارتجفت دلفت الشباك على إثر الطرق وكادت أن تتحطم، بعد لحظات أتى من داخل الغرفة صوتاً متلعثماً:

ـ من.. من.. انتظر.. هل القيامة قامت؟!

مرَّ وقتٌ بعدها ارتفعَ ضوء المصباح، عرفنا أن الطبيب تحرك من سريره، ثم فتح الشباك ومن خلف قضبان الحديد ظلّت رأسه تتحرك وعيناه ترقبنا، أضاف بعد قليل.

– من أنت؟

ـ أنا الأستاذ "فايز" ومعي عمي "غالب".

– وأين هو الذي لدغه الثعبان أو العقرب؟

ـ لا هذا ولا ذاك يا دكتور.

– ألم تقل معي حالة تسمم؟

ـ معي بالفعل حالة تسمم ولكن التسمم ليس من أثر لدغة ثعبان أو عقرب، إنّما تسمم من مبيد زراعي "الأكسفين".

– آه... آه، فهمت.

ثم أضاف على الفور:

- بسرعة خذ عمك إلى المستشفى العام في المدينة، لا يوجد هنا مضادات تسمم لهذا النوع، ما يوجد هنا مضادات لدغات ثعبان، أفعى عقرب فقط. خذه بسرعة لابد أن يفرغ ما بمعدته مع أخذ مضادات التسمم.

ثم أغلق الشباك وعاد الضوء واهناً كما كان من قبل، عدت بسرعة إلى الحمار، أدرته ثم انطلق للخارج باتجاه الطريق الإسفلتيّ، كأنّه سمع هو الأخر ما قاله الطبيب. التفتُ نحوهما وقلت:

ـ سنذهب إلى المستشفى العام.

قالت "شامية" وهي تشد البطانية حول كتف وصدر عمي:

ـ نعم سمعنا ما قاله الطبيب.

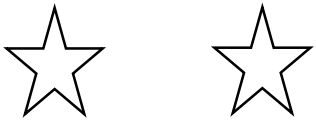

تلةُ الغجرِ
الفصل الرابع

ما زالت رائحة "الأكسفين" تعصف بأنفي ذلك المبيد الخام القاتل التي شربه "فارس شحات" لينهي حياة اليأس والقهر والإهانة الذي تعرّض لها من أبيه أمام خطيبته وأهلها. عمي مُسجىً على فراشه في العربة الحديدية المنطلق بها الحمار دون تتدخل مني، بدا الموت يقترب منه، قدميه لا تقويان على الوقوف أما وجهه فبدا شاحباً ترتفع بطنه وصدره بشدة ثم ينخفضان بسرعة، هل يُعقل أن يكون هذا النائم عمي "غالب" وهل يُعقل أن تفعل بعض قطرات من مسحوق وهواء محبوس كل ذلك بهذا العملاق، غير معقول فهو قوة من قوى الطبيعة نموذجاً عملاقاً لرجل البادية، بقامته المديدة وكتفيه العريضين وشاربه الكث وشعره الأسود الفاحم، ويديه القويتين القادرتين على انتزاع شجرة من جذورها، ونظراته الصارمة التي جعلت الذئب الذي صارعه ذات يوماً يخرُّ على ركبتيه طالباً الرحمة، لم تخِفهُ زمجرة الذئب الجائع، فقد أخذ وضعاً دفاعياً، وتأهبت يداه الخاليتان كأنّه سيبارزه حيث قدم يداً وأخر الثانية وعينه في عين الذئب، وثب وثبته الأولى والأخيرة نحو عمي الذي اِلتقطَ رأسه في الهواء وسحقه تحت قدمه، أصدر الذئب على الفور استغاثة وبدا عوائه نحيباً وتوسلاً إلى عمي كي يطلق سراحه، أمسك رأسه رفعه إلى أعلى ثم وضع قدمه على نحره، ثم فتح فمه بقوة جعلت الذئب يعلن استسلامه،

أمسك فك الذئب العلوي بيد والسفلي بيد، ثم شرع في فتحهما حتى آخرهما وهو يردد معنا يا رب، وبحركة مفاجئة خاطفة فصلهما تماماً عن بعضهما البعض. فعل ذلك وهو ينظر في عينه ويقول له خلال ثوانٍ معدودة سوف أسكت أنفاسك إلى الأبد. أقل من دقيقة سوف أفصل هذا عن ذاك وينكسر الحلق بحركة واحدة في تحدٍ، فعلها بيدٍ خبيرة مدربة، لازال يمسك بفكيه حتى شعر بأنّ ثمَّة شيء دافئ يسيل على معصميه، إنّه الدم يتقطر من بين أصابع يديه، حمله ثم علقه فوق الشجرة القابعة عند مدخل البلدة. أخرجني صوتها الفاتن أعادني إلى اللحظة:

ـ هل سنجد سيارة في هذا الوقت المتأخر؟

ـ إن شاء الله، المهم أن نقطع المسافة حتى الطريق.

الحمار يبذل جهداً خارقاً فوق احتماله، يكاد يطير بالعربة، وثلاثتنا نمثل حملاً ثقيلاً رغم ذلك لم يتوقف لحظة يعرف الطريق ليس في حاجة لأحد، يعدو فوق الطريق الترابي، يدرك أن الوقت ليس في صالح صاحبه، إيقاع حوافر قدميه وأنفاسه المتلاحقة التي تتوحد مع إيقاع أنفاسي عمي الذي يصارع موتاً محققاً، بداخله يستجمع شتات روحه وهو موغل في ليلة الحسم،

يُطمئنُ نفسه أنّه في طريقه للشفاء يرفع يده يطرد من خياله ما تبقى من صور موت قديمة باقية في ذاكرته آن لها أن ترحل دون رجعة.

الحمار ما زال محلقاً فوق الطريق، على الجانب الأيمن الأراضي الزراعية، والجانب الآخر يقف صفاً طويلاً من أشجار الكافور وأشجار أم الشعور الحزينة المُنكفِئة على مياه الترعة خلفها، يخيل لي أنّ الحمارَ سوف ينقلب في الترعة، ماذا أفعل وقتها أنقذ شامية الأول أم عمي. اخترقَ الحمارُ بسرعةٍ صف أشجار الجازورين وخلّف الطريق الزراعي خلفنا واستلم أول المدق الضيق بين أشجار الفاكهة والنخيل. من بعيد تأتي أصوات ماكينات الري وبعض أصوات السيارات تقطع الإسفلت إلى المدينة. والسماء الملبدة تلوح من بين فروع الأشجار، البرد القارص يضرب أذني بسياطه المستمرة، والخلاء أمامي موحش لا ينتهي، انحرفَ الحمار باتجاه الجسر عابراً القنطرة الخشبية وهناك عند دغل من الشجر توقف ليعلن عن انتهاء مهمته. لهاثه عالٍ، ترتفع بطنه وتنخفض بينما أذنيه الطويلتين مشرعة كأنه يحاول السمع، بينما عيناه راحت في الضوء الضعيف تنظر إلى صاحبه الذي جلس على الطريق. بسرعةٍ فككتُ العربة عن الحمار الذي ربطته في شجرة بداخل دغل الأشجار، أما العربة فبجواره داخل الدغل حتى لا يراها عابر طريق، من بعيد

تلوح أضواء سيارة تكشف رقعة من الأرض والسماء، وتخفي عن عينيّ النجوم، أشير إلى السيارة أن تتوقف، أرتجفُ من الخوف. أحدث نفسي بصوتٍ عالٍ هل سيقف. هل سيقف، ما زلت أشير إليه بالتوقف والسيارة قد اقتربت منا، وعيني تنظر نحو السماء، وخلف كلَّ سماءٍ.. سماء، أدعو والخلاء من حولي ظلمة لا تنتهي موحش مسكون بتلك الأصوات السرية التي تتناغم وتتحالف مع الطبيعة ومع أصوات الضفادع والجنادب والكلاب والذئاب، أسمع مع هذا آهات عمي وهو جالس بجانب الطريق خائف وحزين، السيارة تقترب أرفع يدي أكثر للسائق أشير إليه بالتوقف، الآن أتبين ملامحها أنها سيارة نقل كبيرة. لم أصدق نفسي وأنا أرى السيارة تهدئ من سرعتها ثم تتوقف بعدنا بقليل، وفي الجهة الأخرى لاحظت وقوف شامية تفعل مثلي لعلَّ السائق رآها فشده جمالها أو لعلّه رأى عمي الجالس بجانب الطريق أو لعلّه وقع يوماً في مثل هذا الموقف. نزل السائق على الفور أشعر أنّه يحدثني بينما راحت عيناه إلى مكانٍ أخر.

ـ إلى أيّ مكانٍ أنتم ذاهبون؟

ـ إلى المستشفى العام، معي حالة تسمم من مبيد زراعي.

ـ أكيد "أكسفين" أو "لانت"، وأين هو؟؟

ـ الجالس هناك... وهذه زوجته وأنا ابن أخيه.

ساعدهم السائق على الفور في حمله حيث ركب هو بجانب السائق وركبت شامية بجوار الباب أما فايز ركب في الخلف في صندوق السيارة. وانطلق بسرعةٍ جنونيةٍ بالتأكيد يعرف أنَّ حالة التسمم ليس في صالحه ضياع الوقت، هو كذلك يعرف أقصر الطرق إلى المستشفى العام، لم يكن في حاجة إلى أيّ شخص يدله على الطرق الصحيحة. الطريقُ خالٍ في هذه الساعة المتأخرة من الليل. انقطعت أصوات الطبيعة، بقي صوت الريح وهو يصفر في أذنيهم ويضرب وجوهَهُم بقوة. وهدير محرك السيارة يئن وهي تشق الريح والظلمة الحالكة.

يلتفت السائق نحوها وهو يقول.

– والدك هذا أم زوجك؟

تحركت يد غالب القوية لتعيد وجه السائق نحو الطريق قائلاً:

ـ زوجها يا أسطى على كلّ الأحوال لك الشكر، سنعرف عنوانك وغداً نزوك ونردُ لك جميل ما صنعت لنا، الآن من فضلك لا وقت للكلام ترى حالتي، وتعرف أقصر الطرق للوصول إلى المستشفى.

– حاضر يا حاج أعرف كل الطرق ومن أقرب طريق سنصل، لا تخف إن شاء الله خير.

أعاد "غالب" رأسه إلى الخلف ليريحها على الكرسي عاود التفكير في الأرض معشوقه الأبدي من سيرش الطماطم ومن سيعتني بها والبهائم والريّ، فردَ ذراعيه حجب جسده الضخم رؤية السائق لوجهها المضيء، حاول مرات عديدة بالالتفات أو من خلال النظر في المرآة، ولكن جسد العملاق سدَّ كلَّ الطرق إلى رؤيتها.

مرت أمامها مشاهد "فايز" وهي تغمض عينيها وتسند رأسها بجانب الباب وتكاد تختفي في جسده ذلك العملاق الذي يصارع الموت، مرقت بسرعة أمام خيالها وهو يرفع الفانوس ليرى وجهها، وهو يقول عمي مَن؟ هل لي عم، وهو يحرك كف يده أمام وجهها، وهو يقع ويمسك بها، كادت أن تخرج ضحكاتها ولكنها حبستها في آخر لحظة، خرجت بسمة على الفور، وضعت يدها فوق فمها لتخفي أثرها. ولكن شيئاً واحداً جعلها تسأل نفسها، من هي نور؟ التي ناداني بها، هل هي تشبهني إلى هذا الحد !؟ هل هي حبيبته؟ قال أنّه شاعر، هل يكتب شعراً مثل أحمد شوقي وإبراهيم ناجي؟؟ هو شاب جميل وشاعر وفي الجامعة، الجامعة أمنية حياتي وحلم عمري الذي ضاع مع الزواج

وها هو زوجي مقبل على الموت، لا.. لا.. إن شاء الله سوف يعالج ويعود بألف سلامة. هو إنسان بمعنى الكلمة لم يغضبني يوماً، قلبه طيب، أعرف أنّه يعشق الأرض يحبها أكثر مني، ولكن هذا ليس عيباً، هذه حياته ومصدر دخله ومشروع عمره كما يقول. ولكن من هي نور الذي ناداني بها ؟!.

يقرب "فايز" عينيه بقوة من الزجاج الخلفي لكابينة السائق لعلّه يراها أو حتى عمه، الظلام شديد والأتربة تغطي الزجاج، يلصق عينه على الزجاج لا يرى شيئاً، يرفع رأسه ويمسك في حديد الصندوق ويميل بنصفه ناحية الباب، لعلّه يرى حتى نصف وجهها، الزجاج مغلق. سياط البرد تضرب وتلطم خده ووجهه، وأذنيه بقوة منذ لحظة ركوبه، لا بل منذ لحظة خروجه من المنزل، يمنّي نفسه بأّنّ الوقت الذي لا يمر سوف يمر وعمّا قريب سيصل حتماً إلى المستشفى، وأنّه سيكون عنده الوقت الكافي ليراها ويتحدث معها، المستشفى لم تأتِ بعد، ينظر إلى المكان البعيد الذي تركوه منذ زمن، يدقق النظر في الخلف لا وجود لأي سيارة، يحمد الله أن هذا السائق توقف وإلا كانوا وقفوا حتى الصباح، يحدث نفسه ماذا كان سيفعل، حتماً كان عمي سيموت مكانه قبل أن نلحقه. يقسم "فايز" أنه توقف من أجلها، ربما فكر بأنّها طالما وقفت في هذا المكان وهذه الساعة المتأخرة من الليل وخاصة على الطريق الإسفلتي

المؤدي إلى المدينة ومنها إلى كلّ الجمهورية، أنّها هاربة من أبيها أو زوجها، ولكن إذا كان فكر في هذا، كان عليه أن ينطلق بالسيارة لحظة مشاهدتنا، ربما فكر أنّه سيكون البطل المنقذ في نظرها الذي أنقذ أبيها أو زوجها. يمسك بحديد الصندوق، يميل بنصفه، يحدِّق يلصق عينيه بزجاج الباب لعلّه يراها. لكن لا شيء من ذلك يحدث، لسعات البرد ما زالت مستمرة، يجلس سانداً ظهره على مقدمة كابينة السائق التي تفصله عنها، يضع يديه فوق أذنيه لعلّه يخفف هجمات البرد ولسعاته المستمرة. ينظر حوله الظلام يحيط به من كلّ جانب، ولا أثر لأي سيارة قادمة من الخلف أو الأمام، والمدينة لم تأتِ بعد. الخلاء حوله يبتلع كلّ شيء حتى الأشجار على الطريق تظهر وتختفي فجأة كأنها أشباح، لا صوت حوله سوى صوت الريح وهدير محرك السيارة، يختل توازنه ويقع في صندوق السيارة، يتقلب بشدة يرتطم بقوة بالباب الخلفي لصندوق السيارة، يتفحص رأسه ووجهه يضع يده على مكان الاصطدام ثم يقربه من عينه، لا يرى شيئاً، حتى يده لا يراها، فكيف يعرف أن كانت بها دم أو لا، يكاد يصرخ من الألم، رأسه وركبتيه وذراعيه، يضع يده اليمنى برفقٍ على كوعه يخرج صوته في الفضاء يصرخ من شدة الألم، يسأل نفسه هل كسرت ذراعي؟ يفرد ذراعيه ثم يلمهما عدة مرات، ينظر إلى

المسافة التي تقلبها في صندوق السيارة حتى اصطدم بمؤخرتها. يحمد الله أن الباب موصداً وإلا كان الآن يكمل تقلبه فوق الإسفلت ومع هذه السرعة وارتفاع السيارة، كانت حتماً نهايته. لا يستطيع العودة إلى مكانه. رأسه وساقيه وكلّ مكان في جسده يئن في ظلمة الليل يتحسس وجهه هل تشوه؟ السيارة تقطع الطريق الخالي إلى المدينة والبلاد تأتي قطع من السواد تغطُّ في نومٍ عميقٍ، سرعان ما تظهر ثم تختفي يعرفها فقط وهو جالس مكانه دون حراك من أصوات الكلاب وهي تهرول خلف السيارة المنطلقة، يحدّث نفسه بصوتٍ مسموعٍ. ماذا يقول لها السائق الآن، هل يطمئنها وهو يطبطب على كتفها، لكنّ عمي سيتركه يفعل ذلك؟ لا سينسى مرضه والجميل الذي فعله، سيمزقه أشلاء مهما كانت العواقب. الآن من بعيد يرى أضواء المدينة، مجرد مجموعة من الضوء يبتلعها الخلاء، تقترب رويداً رويداً. جرَّ نفسه تحامل على الألم، أخذ يقترب أكثر حتى وصل إلى مقدمة السيارة. شوارع المدينة شبه خالية، إلا من بعض السيارات التي تمرق وتختفي في شوارع جانبية عديدة، أنوار لمبات النيون تغرق المدينة في أضوائها، يزداد توهجها يضفي على شوارعها بهجة وبهاء. الآن يرى رأس عمه ويرى السائق لكنّه لا يرى شامية، يدخل السائق بنفس السرعة شارع "سعد زغلول" المتفرع منه

شارع المستشفى، تظهر بوضوح لافتها مستشفى "كفر الشيخ العام" يقتحم الباب الحديدي المفتوح على مصراعيه، يهرول خلفه أحد رجال الأمن صائحاً:

ـ انتظرْ.. انتظرْ كان عليك أن تنتظر في الخارج.

يضغط السائق كباحة الفرامل في حركة استعراضية سمعها الجميع، يأتي صوته الجهوري عالياً.

ـ معي حالة تسمم.

يكررها بعد أن أوقف السيارة أمام الاستقبال مباشرة، ينزل منها في قفزة واحدة وهو يصيح.

ـ معي حالة تسمم.. حالته خطيرة.

مع هذا الهرج والمرج التي أحدثته السيارة واقتحامها المكان، وهرول رجال الأمن، خرج الممرضون والمسعفون للاستيضاح الأمر. تحرك السائق بسرعةٍ ناحية ترول بجانب الباب، جذبه بعنفٍ وهرول به ناحية السيارة. كان "فايز" قد هبط بصعوبة ومن قبله بقليل "شامية" ساعدا عمه في النزول بمساعدة أحد رجال الأمن. تعاونوا جميعاً على وضعه فوق الترول، ملأ جسده الضخم كلّ المساحة فوقه أما الباقي ظل معلقاً في الفراغ، انطلقوا بسرعةٍ حيث غرفة

مجهزة أشبه بغرفة العناية المركزة. تعاونوا على وضعه فوق السرير، صاح أحد الأطباء مستفسراً:

ـ حالة تسمم ممن؟

لم يسمع "فايز سلطان" ما قاله الطبيب يهز رأسه مستفسراً أيضاً، يأتي صوت طبيبٍ آخر، وأصوات أخرى:

ـ تسمم ممن من لدغٍ أو شربٍ؟

تتضح الأمور أكثر "لفايز" يتحرك نحو الطبيب قائلاً:

ـ دكتور ليس لدغاً إنّما من شرب واستنشاق مبيد "الأكسفين".

في لمح البصر كانت اللغة اللاتينية هي الحديث المسموع في الغرفة، من خلال بعض الكلمات عرف "فايز" أن حالة عمه خطيرة، وهم يفحصونه من خلال عينيه ونبضات القلب، رائحة "الأكسفين" ذلك المبيد الخام القاتل تخرج من فمه تملأ الغرفة وتغطي على كلّ الروائح من مطهرات وحقن وغيرها، أصبحت رائحة هذا المبيد القاتل هي السائدة والمسيطرة الآن، بعد الفحص الذي اشترك فيه أكثر من طبيب. انهالت عليه حقن مضادات التسمم وشربة الملح، وانتظر الجميع لحظة التقيؤ وإفراغ ما بالمعدة، ولكنها لم تأتِ بعد، يأمر كبير الأطباء ربما قام رئيس القسم بإعطائه جرعة ثانية من مضادات التسمم

وشربة الملح وغيرها من أقراص الفحم وغيرها من مثيرات المعدة وينتظر الجميع لحظات التقيؤ وتقرب إحدى الممرضات من رأسه جردلاً كبيراً، ولكنها لم تأتِ بعد. تعود شامية من عند المحقق تقف عند رأسه تضرب أخماساً في أسداس لا تعرف ماذا تفعل، لقلة خبرتها وصغر سنها، ماذا تفعل وماذا سيكون مصيرها، تعبث الذكريات بعقلها.

أبوها شبّاط صاحب الأعصاب الضعيفة ظل يشاكس الناس والناس تشاكسه حتى مات، وتركها وأمها تحت رحمة الأخ الأكبر، التي استولت زوجته على عقله فبدا يرى بعينها ويسمع بأذنيها ويحبُّ ويكره بقلبها. سنوات قليلة مارست عليها "هنادي" أصناف من القهر والإذلال، حتى جسدها به آثار ما زالت تحكي قسوة وقهر زوجة الأخ، تغار من شامية، فعلت المستحيلات حتى تبدو أجمل منها، فعلت كلّ ما يقبح صورتها بدت أكثر شراسة من زوجة أبو "سندريلا" عملت دائماً بالمثل القائل. "لبس البوصة تبقى عروسة". تتذكر دموع أمها صباحاً ومساءً وترى قلة حيلتها وراء تصلب أخيها ومكر زوجته، تتذكر رفض أمها على فكرة الزواج قبل أن تُكمل تعليمها، ورغم كلّ ذلك خرجت من المدرسة، وتزوجت من "غالب"، كان اعتراضها على المبدأ نفسه، وليس على الأشخاص.

تمنت لو أنّها أكملت حلمها في التعليم، والوصول إلى الجامعة، ولكن الموت الذي حصد أبيها وقلة حيلة أمها، حاولت مرات كثيرة أن تضع حداً لحياتها ولكن أمها كانت لها بالمرصاد.

أحسَّ قلب "فايز" الواقف أمام عمه "بشامية" خلفه، على الفور استدار إلى الخلف للمرة الأولى، منذ أن طرقت باب منزلهم، يرى الوجه كاملاً وبوضوحٍ كاد يصرخُ من فرط الروعة من هذا الإبداع الرباني الذي لا يتخيله أحد حتى الوجه الذي نحته "هاني صلاح" بجانب "شامية" لا يساوي شيئاً، بل كلّ وجوه العالم أمامه لا شيء، هذه الأنف الصغيرة الجميلة تفوق ما أبدعته ريشة الفنانين عن حوريات "عمر الخيام "وعن "أميرات بلاد فارس"، هذا الوجه الذي هو شمس في ضوئها وهذه الشفاه التي لها لون الورد، آه سبحانه ما أبدعه.

شغله هذا الجمال عن سماع مسؤول الأمن الذي ظلَّ ينادي حتى جذبه من ذراعه قائلاً:

ـ يا أستاذ هل عندك مشكلة في السمع ؟!.

- لا طبعاً لماذا تقول ذلك؟!

- لأن صوتي راح وأنت بجواري لا تسمعني.

- في حاجة؟

- الباشا في الغرفة المجاورة يريد بعض المعلومات.

- معلومات عمّن؟

- عن عمك.

حرمه ذلك المسؤول عديم الرحمة من مواصلة النظر والتمتع بهذا الوجه السماوي الذي يفوق كل البشر، خرج من الغرفة ترك الدنيا بأسرها خلفه، يسير حيث أشار إليه هذا الموظف يدخل الغرفة لم تكن كبيرة توسطها مكتب ضخم جلس خلفة رجل في الأربعين من عمره يبدو عليه الصرامة والهيبة، ولكنه أفسد عليه لحظات عمره. لم ينتظر حتى يجلس باغته بالسؤال:

ـ يا أستاذ أنت مع حالة التسمم.

- نعم.

- اسمك.

- فايز سلطان.

- سنك.

- عشرون عاماً.

- مهنتك.

- طالب بالفرقة الثالثة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

- درجة قرابتك للحالة.

- عمي.

- اسمه بالكامل.

- غالب الصمدي.

- عمره.

- حوالي أربعين عاماً.

- مهنته.

- مزارع.

- هو متزوج.

- نعم متزوج حديثاً.

- هل يقيم مع العائلة في منزل واحد؟

- لا... يعيش مع زوجته في منزل آخر.

- أبلغتنا المستشفى بوصول حالة انتحار من أثر شرب مبيد زراعي قاتل، هل دست له زوجته هذا المبيد في الأكل أو الشرب مثلاً دون أن يشعر؟!

بدا ظاهراً هذا الانفعال اللا إرادي والسريع الذي ظهر على وجه "فايز سلطان"، فقد ظن المحقق أنه سوف ينقض عليه وسوف يقتله، هذا ما أوحت به حركته ملامح وجهه حين صاح قائلاً.

- ماذا تقول.. ماذا تقول حضرتك؟؟ زوجته التي لم يجُد الزمان بمثلها تقتل، لا... وألف لا....

- إذاً أنت تحبها، هذا أمر واضح.

صمت لحظات، ثم أكمل حديثه قائلاً.

- أنت تحبّها وهذا واضح، وبالتالي فقد سوّلَ لكم الشيطان...

لم يتركه حتى يكمل حديثه، صاح قائلاً:

- لا سوّل ولا شيطان فأنا لم أرَها في حياتي سوى منذ ساعة واحدة أو يزيد، عندما طرقت باب منزلنا تستغيث بنا، فهي ليست من بلدتنا، ولم أعرفها من قبل، وحتى فرح عمي لم أحضره، فأنا مثلما قلت لك سابقاً أقيم في القاهرة، وزياراتي إلى البلدة قليلة جداً حتى الأعياد أفضل قضائها هناك.

- ولما كلّ هذه العصبية وكل هذا التوتر، لمجرد ذكر اسمها؟

- يا سيدي مثلما قال لك عمي، إنه المسؤول عما حدث له، لأنّه قطع كيس المبيد بأسنانه.

-احتمال أنه يبرئها حتى يأخذ ثأره بنفسه، وهذا موضوع شائع وخاصة في الأرياف.

ـ يا سيدي ما تقوله ليس صحيحاً، قبل أن تسأله سيادتك، سألته أنا وقال مثلما قال لك بالضبط، أنّه قطع الكيس بفمه مستخدماً أسنانه، وأن هذا المسحوق القاتل وما به من هواء محبوس طار في فمه وعلى وجهه.

- وهل هذا كلام يصدق؟! من الممكن أن يحدث ذلك في الغيط لا في المنزل، من غير المعقول ألا يكون في البيت مقص أو سكيناً؟

- يوجد كثير، ومطواته لا تفارق جيبه.

- لماذا إذاً يستخدم أسنانه في قطع الكيس، ولماذا يجهز هذه الأشياء ليلاً؟

- يا سيدي... عمي دائماً ومنذ زمن طويل يفضّل تجهيز أشيائه ليلاً حتى إذا ما أذن الفجر أخذ أغراضه في العربة الحديدية وانطلق بها نحو أرضه، أرضه يا سيدي وأنا أعرف هي معشوقه الأبدي، هي أمه وأبوه وزوجته وأخوته وكلّ شيء.

- وكيف تفسر أنت ذلك؟

- عمي يرى في قوته أنها تستطيع أن تقهر أيّ شيء مهما كانت، وأنّ هذا الكيس مجرد كيسٍ من البلاستيك يمكن قطعه بسهولة، حتى أنّه يظنُّ أيضاً أنَّ هذا المبيد لا يستطيع فعل شيء.

- قلت أنَّ عمَّكَ متزوجٌ حديثاً، من المحتمل أن تكون زوجته.....

لم يعطه أيّ فرصة للصق مزيد من التهم صاح فيه:

ـ يا سيدي لا تدع الأفكار تأخذك إلى أماكن أخرى زوجة عمي ليس لها شأن بهذا الموضوع من الآخر، إنَّ عمي لا يرى في هذه الأشياء أنها تستطيع أن تسبب له أيّ ضرر، فهو يعتقد أنّه أقوى من كلّ هذه الأشياء.

- وضح كلامك.

-هل تعرف يا سيدي، أنه يخرج من منزله في عزِّ الليل، حيث الظلام والذئاب والكلاب الضالة، إلى أرضه البعيدة، دون أن يحمل في يده حتى مجرد عصا. وحين يكلمه أحدٌ يرد عليه وماذا تفعل هاتين، ويشير إلى يديه. في إحدى المرات هاجمه ذئب كان يقطع الطريق ليلاً، هل تعلم ماذا فعل عمي به، حين بدأ الذئب بالهجوم، انتظرَ عمي لحظات، حتى إذا ما وثب الذئب التقطه بيديه في الهواء وسحقه بقدمه على الأرض وهو ما زال ممسكاً برأسه بين يديه، وقبل أن يفكر في النهوض من تحت قدمه أمسك فمه بقوة ليفتحه أخذت يده

الفك العلوي والثانية الفك السفلي وفي حركة واحدة كأنها ومضة فصلهما عن بعضهما البعض. ثم حمله وعلّقه فوق شجرة أم صبحي القابعة عند مدخل الحقول. شيء آخر يا سيدي عندما رأى أكثر من عشرة رجال يناوشون أفعى كبيرة طولها يزيد عن ثلاثة أمتار، يفرون منها حين تهاجمهم ثم يعودون إليها عندما تهم بالاختباء. هل تعلم ماذا فعل، دفعهم بعيداً وهو يسخر منهم قائلاً " عشرة رجال يفرون أمام أفعى لو أخذ كل رجل منكم حجر واحداً لقتلت ". شق طريقه نحوها بيدين خاليتين، أخذت وضعاً هجومياً، التفت حول نفسها في دائرة ثم رفعت رأسها إلى أعلى، فردت عنقها الذي اتسع بعرض كف رجل كبير، ثم أطلقت فحيحاً مخيفاً وبات مرئياً فمها وهي تفتحه وتبرز أنيابها الواضحة وضوح الشمس، تركها تفعل ما يحلو لها مع الانقضاضة الأولى والأخيرة لها نحوه تركها، وتنحي جانباً، سقطت على الأرض أمامه، وقبل أن تبدأ من جديد، كان قد انقض عليها أمسكها بقوة ثم أخذ يلفها في الهواء بسرعةٍ فبدت كمروحة كبيرة حاولت الالتفاف نحوه ولكن قوة الدوران منعها، راح يلف بها في الفضاء في دائرة كاملة، كانت يده الممسكة بها نقطة الدائرة، أمام مرأى ومسمع كل الحاضرين، مع دورانها بدأ يقذف رأسها نحو حجر ضخم على الأرض، فعل هذا عدة مرات وهو يدور

معها في دائرة كاملة والناس لا تصدق ما يجري أمامهم. وقفوا منتصبين كأنهم في حلم. فعل هذا دون أن يتركها من يده حتى تهشّم رأسها تماماً، ثم ألقى بها نحوهم وهو يقول في سخرية " كل هؤلاء على هذه الأفعى الصغيرة ". هل تعلم يا سيدي أنها كانت تفوق طولها طول رجلين من الحاضرين!! كل هذه الحكايات التي سمعتها وتنتظر منه أن ينادي على زوجته لتحضر له مقصاً أو سكيناً ليقطع به مجرد كيس؟!.

ـ شكراً لك أستاذ "فايز" يمكنك الانصراف.

قبل أن يذهب حفظ عن ظهر قلبه اسم الدفتر ورقم الصفحة والتاريخ وكذلك قرأ ما كتبه المحقق. فقد كتب أن هذه الحالة ليست انتحاراً وإنما حدثَ عن جهلٍ وحسن نية.

لا يعرف لماذا قال كل هذه الحكايات، كان يمكنه قول القليل وأن ما حدث لم يكن الأول بل حدث الكثير لرجال وهم يرشون القطن بموتور الرش، هناك إذاً حالات حدثت بالفعل من الاستعمال الخطأ، هل هو بذلك يرتب لأشياء قادمة وأن هذه الواقعة دليل على التهور والاندفاع. لكن حاشى لله فهو يحبُّ عمه، فقد ذهب إلى مدير المستشفى وإلى رئيس القسم ومرَّ على كلِّ أطباء البطنة، مرة في لين وود وتحايل ومرة بصوتٍ مرتفعٍ، استطاع منذ

اللحظة الأولى، حشد كل الأطباء حول عمه. انتفض حين تذكره فقد أخره المحقق كثيراً، ماذا عساه أن يفعل الآن وعمه يبدو كشاةٍ عجفاء خلفتها القافلة خلفها وعلى مقربة منها تتربص الكلاب والذئاب، متلصصة بعيون تكشف عن جوعها السحيق ومنتظرة اللحظة المناسبة، يحاول بلع ريقه، حلقه جافٌ. الليل ما زال قابعاً على حجرات وممرات المستشفى، جلس على مقعدٍ قريبٍ، يشعر بخدرٍ يستحوذ على جسده، تزكّم أنفه رائحة المطهرات، لم تعد اللحظة فضاء رحب فالجسد مُدان وها هو يلوك الأيام الكسالى مفكراً بالأشياء التي افتقدها دار الكتب ودور السينما وشوارع القاهرة والحسين وخان الخليلي وسور الأزبكية وكورنيش النيل، وأحلام اليقظة و"نجوان السعيد" و"شامية" صاحبة الوجه السماوي، هرول ناحية الغرفة وقف خلفها تماماً همس في أذنها:

ـ هل تحسنت حالته؟ هل تقيأ؟!

- لا لم يتقيأ بعد ولكنهم أعطوه الجرعة الثالثة منذ قليل.

- أعرف فقد مررت على المدير قبل أن أذهب إلى المحقق، قال سنلجأ إلى الجرعة الثالثة، لا تخافي يا "شامية" سيشفى عمي.

بدأ طبيبٌ شابٌ في فحصه، شدَّ جفن عينه إلى أعلى نظر فيها بعمق، يحاول إطالة فترة بقائه بالقرب من "شامية"، ينظر إليها كلما حانت له فرصة، لم ينتظر طويلاً اقتحم الموقف موجهاً كلامه إلى المريض:

ـ معك هذا الملاك السماوي وتنشغل بغيرها.

ابتسمت خجلاً، تحفز "فايز" تحرك من مكانه اقترب من الطبيب الذي عقب قائلاً:

ـ اسمك إيه؟!

- شامية.

- ما أجمل الاسم مثل صاحبته. متعلمة يا شامية.

- وصلت حتى الصف الثاني الثانوي.

- ثانوي عام.

- نعم ثانوي عام، نجحت بالصف الثاني وكنت الأولى على مدرستي، وتمنيت أن أكون طبيبة أطفال.

- إنَّ مهنة الطب كانت ستكسب طبيبة جميلة ورائعة.

في هذه اللحظة تغير وجه "فايز" لم يعد في قدرته تحمل المزيد، كان على يقين أنَّ الطبيب الشاب بحديثه المعسول سيجعل "شامية" تنجذب إليه، هذه المرة خرج عن صمته المألوف بدا هذه المرة غير متلعثم.

- على رسلِكَ يا دكتور، لابد أن تعرف أولاً أن مهنة الطب مهنة غريبة تقترب من السحر والشعوذة.

تغير وجه الطبيب... حوّل بصره بصعوبة عنها إلى حيث المتكلم قائلاً:

ـ ماذا تقول.. سحر وشعوذة من قال هذا؟! ألا تعرف أن الطب مهنة نبيلة تتعامل على الأقل مع أسرار الحياة والموت!!.

ضحك "فايز" في سخرية أغاظته دون أن يدير وجهه ناحية الطبيب، ما زالت عيناه تحلق في عيني شامية قائلاً:

ـ من علّمك يا دكتور هذه الكلمات الضخمة؟ الطب يا دكتور مجرد تسكين لآلام لا تنتهي، مهنة مزيفة، تخادع الإنسان وتعطيه وهمَ الشفاء، بينما الموت يقف بالمرصاد، الشفاء الحقيقي يا دكتور هو الشفاء من الموت وهذا لن يتحقق.

وقف الطبيب لحظات شارد العقل، لا يعرف ماذا يقول كأنما بُهتَ، ظلَّ هكذا دون حراك إلى أن قال:

ـ هناك أبحاث ....

لم يدعه يكمل حديثه عاجله بأخرى:

ـ أبحاث إيه يا دكتور، أنتم فشلة، متوهمون، مرض بسيط من أيام الفراعنة، اسمه "البلهارسيا" تعرفون دورة هذا الطفيل، ورغم ذلك لم تستطيعوا القضاء عليه أو إيجاد علاج يبيده في مكانه قبل أن يدخل جسم الإنسان. رغم معرفتكم الأسباب، وغيره من الأمراض الكثير.

توقف عن الكلام فجأة حين شاهد عمه وهو يأخذ الجردل الكبير ويفرغ كل ما بمعدته، مرات ومرات كان صوته عالياً، خُيّل للجميع بما فيهم الطبيب أنه سيفرغ معدته، وسوف تخرج أحشائه الآن حتماً لا محالة. الجردل الكبير امتلأ عن آخره. هرول فايز ناحيته حمله واتجه مسرعاً به نحو الحمام قبل أن تأخذ عمه النوبة التالية ربما الأخيرة من القيء. استغرب الطبيب، أيّ معدةٍ أياً كان حجمها لها أن تحوي كل هذا ؟!. العرق يغمر كل جسده. تهيأ للنوبة القادمة من القيء حضر "فايز" في اللحظة الأخيرة، وضع الجردل تحت فمه، الذي تلقى الدفعات المتلاحقة. الحياة التي هجرت هذا الجسد تعود رويداً رويداً. تدبُّ الآن في عروقه، "شامية" ما زالت منكبة فوقه وهو ممددٌ على السرير تمسح ما علق بفمه وشاربه ووجهه، عاد أيضاً "فايز" يحمل منديلاً

كبيراً مبللاً بالماء مسح به وجهه وأنفه. بينما الطبيب كتب علاجه وسار إلى خارج الغرفة، في وقارٍ مصطنعٍ نظر خلفه خلسةً عدة مرات نحوها كأنه يودعها. يشعر "فايز" الآن بكراهية هذا الطبيب نحوه، فهو لم يكن مأخوذاً بكلماته، ربما لم يسمع معظمها، إنّما كان مذهولاً بهذا الجمال الرائع والنادر. جاءت ممرضة علقت له محلول وأضافت به بعض المضادات الحيوية.

همس "فايز" في أذنه:

ـ كيف حالك الآن يا عمي؟

- في أحسن حال والحمد لله الآن أشعر بعودة الروح، وبالدماء تسري في شراييني.

- سوف أحضر بعض الطعام لزوجة عمي لن اتأخر سوف أعود بسرعة.

- بسرعة يا "فايز" فهي لم تذق الطعام منذ الصباح، عد بسرعة.

تلةُ الغجرِ
الفصل الخامس

كأنّها خرجت من واحدة من أغاني "عبد الحليم حافظ "، وجدتها أمامي تهبط المنحدر. كانت أكثر جاذبية من أغنية جديدة رائعة أسمعها للمرة الأولى، تتأبط ذراع عمي تتقدم نحوي، وحين أصبحت على مقربة مني، أطلقت ابتسامتها العذبة. المطر الغزير ينهمر على وجهها متسللاً من بين غدائر شعرها الليلي، أهو الحلم؟! حورية تجوس خلال جنة وحين وقفت أحسست بأن ثمَّة حياة بأكملها أمامي، خفت عليها من المطر. عمي يقف بجوارها عملاقاً، وأنا جالس تحت شجرة كبيرة تتلقى أوراقها وفروعها الأمطار عني، الضحكة العذبة تنطلق مجدداً لا أعرف، هل تضحك لعمي وهي تراه بأحسن حال مما أصابه بالأمس، أما لعلّها تضحك لي بدأ الصراع والحيرة ينهشان قلبي. الذي تبين لي أن قلب الإنسان لا يمكن أن يكون في يده، وعلى الفور حلّقت أغنية "عبد الحليم حافظ" بجناحيها أمام مخيلتي " فاتت جنبنا " والتي أحفظها عن ظهر قلب والتي تقول:

"وأعرف منين إنها قصداني أنا مش هو!؟

وأعرف منين إن الضحكة دي لي أنا مش هو !؟

وليه أنا مش هو ... مش هو!؟

أخذ عمي "غالب" يدي وجذبني نحوه وكأنني أنا المريض وأن ما حدث بالأمس كان لي وليس هو، جذبني مرة واحدة كدت أطير في الهواء على إثرها، أخذني في حضنه وأخذ يربت على كتفي وهو يقول بصوتٍ متأثرٍ مبحوح:

ـ بارك الله فيك يا "فايز" أنت بحق ابني، كنت على وشك الموت، خطوة واحدة كانت تفصلني عنه، إن لم تأتِ لكنت خطوتها رغماً عني لا محالة في ذلك، لكنك أنت من وقف أمامي، ومنعني من القدوم نحوه، وأعاد لي الحياة.

- الله وحده هو من أعاد لك الحياة يا عمي، وإنما كلنا فقط أسباب.

- الحمد لله والشكر لله، ولكني رأيتُ الخوف والهلع في عينيك.

ـ الحمد لله على سلامتك يا عمي، لا يوجد من هو أعز منك.

- سأذهب إلى الأرض لعلَّ العامل انتهى من عمله.

- لا يا عمي ما زلت مريضاً.

- أنا صحتي تمام والحمد لله فقط أطمئنُ أن العامل أنهى عمله وأعود ثانية.

- أبي هناك.

ـ أعرف جاء في الصباح الباكر ليطمئن عليّ، ثم أخذ العربة وموتور الري وكان معه "صالح أبو خليفة".

- استرح اليوم فقط.

- يابني أنا بخير، أنت اجلس هنا وزوجة عمك تحضر لك الفطور، أعرف أنك لم تفطر.

- لا فطرت يا عمي.

- يا أبني أعرف "عرب" زوجة أخي لا تهتم بأحد غير نفسها.

خرج عمي إلى الغيط وبقيت وحدي أنتظر قدوم "شامية" لا أعرف سبباً واحداً لهذه النوبات من الاضطراب التي بدأت تهاجمني، تسري من وقت لآخر، هزاتٌ قويةٌ ورعشةٌ بأنحاء جسدي، هل هو الخوف من المجهول، أم هي نفسي تعرف ماذا أخطط، أم هو استحيائي من عمي، لا أعرف ولكن الذي أعرفه أنني أتتوق وأشتعل شوقاً لرؤيتها، والاستمتاع بالنظر إلى هذا الوجه الملائكي تحت ضوء النهار. هكذا انتظرت مرت لحظات، ربما دقائق وقلبي ما زال يخفق كلما مر الوقت. كنت في حيرة من أمري أنتظر حتى أرى ماذا سيحدث، أم أغادر قبل أن تأتي، وقعت في ترددٍ شديدٍ وجدت نفسي تميل إلى الرأي الأخير، فذهبت على الفور خرجت من الباب إلى الحديقة الخارجية للمنزل، التي لم أرَها من قبل، سحرني منظر ترتيب أحواض الزرع فخُيّل لي أنني أحلم، لا أدري إن كانت قدماي قد توقفت لحظات أمام أحواض الزرع أم لم تتوقف. البوابة الكبيرة ذات الدرفتين الكبيرتين أمامي من ورائهما

امتداد شاسع لحقول القمح سيد غلال الموسم، من بعيد تقاوم أعواده الريح مسترسلة مع الهواء. أما حديقة عمي بها كل أو معظم أشجار الفاكهة، إلى جانب أحواض الخضار تتصدر سقيفة العنب جزءاً كبيراً، أعدت الأرض من تحتها للجلوس حيث فرش حصير وهناك خلف البيت تقف أشجار الفاكهة تهديك من روائحها الكثير دون مقابل. عبرت قدماي البوابة حيث الطريق إلى المرتفع، الذي يهبط مباشرة إلى البحيرة ولكن الانحدار يقل قبل أن تصل بيت عمي حيث تستوي الأرض، قالوا أنه بذل مجهوداً كبيراً في معالجة هذا الانحدار الشديد بردمه بكميات كبيرة من التراب، أما في الجانب المقابل من الطريق تتعرج الأرض على شكل مدرجات نحو الجنوب في صعود نحو نهر صغير يأتي من الشرق ويلتوي مع الطريق باتجاه الجنوب يتفرع منها فرع صغير يروي أرض الحمراية، قبل أن يتعرج نحو أرض البراري هناك بناء عتيق أسود لعلّه كان وابور مياه فيما سبق، أما منزل عمي الذي يقع أسفل المنحدر من ناحية الغرب حيث الطريق الذي ينتهي إلى البحيرة مكون من طابقين له نوافذ من الأربعة جهات تحيطه حديقة واسعة لها حدود مباشرة من ثلاثة جهات أما الجهة الرابعة جهة الشمال فتحده البحيرة مباشرة، وأروع شيء هو اختيار المكان حيث الهدوء والبحيرة وقربه إلى الطريق وبعده عن البلدة.

تركت لقدمي الحرية في صعود المنحدر الذي يزيد ارتفاعه عن عشرة أمتار ولكن انسيابيته قد لا ترهق أقدام من يصعده. كاد الفرح يشل حركتي لما سمعت صوتها الفاتن يأتي من خلفي.

- يا أستاذ "فايز".. يا أستاذ "فايز" انتظر.

كانت تشير لي بالرجوع، لعلّها هرولت ورائي، كان ذلك واضحاً على صوتها. وقفت أنظر إلى المرتفع أمامي والصوت الفاتن خلفي، الذي مازال يدعوني إلى العودة وأنا لا أعرف ماذا أفعل، أعرف أن هذه اللحظة هي لحظة حاسمة في علاقتنا ولكن لا يعرف الإنسان متى تبدأ القصص ومتى تنتهي، ولكني أعرف أنني أمام خطوة واحدة في الصعود أو الهبوط، لحظات والصوت آتٍ وأنا هكذا في وقفتي. في النهاية وجدت نفسي أهبط مدفوعاً بقوةٍ غريبةٍ إليها وأنا أتساءل في نفسي ما الذي يجعل المرء على هذه الدرجة من الولع؟! وهو مقبل على مخاطرة قد تكلفه حياته، أو حياة إنسان آخر!! "ستقتل يوماً أقرب الناس إليك. مهما حاولت لن تغير قدرك" دخلت أمامي لم تنتظرني وهي على أول درجات السلم الداخلي كنت قد تجاوزت البوابة. أشارت لي بأصبعها ناحية سقيفة العنب أغلقت البوابة خلفي ودخلت حيث أشارت، المكان نظيف جداً جلست على الحصير، أشعة الشمس تنفذ من خلال فتحاته كثيرة في

السقيفة وترسم ظلالاً على الأرض بجانبي. والأمطار قد توقفت وسطعت الشمس، المكان غاية في الروعة تحيطه الأشجار من كل مكان بينما يقف السور الخارجي بعيداً. أرقب غيمة صغيرة تبتعد بسرعة لم تكن مألوفة ولم تكن غيمة الصباح، عبرت الحديقة ثم المنزل لفضاء البحيرة، العالم غريب دائماً أتوصل إلى هذه الحقائق بنفسي، أبحث عن سببٍ يجعلني أبتعد بسرعةٍ مثل هذه الغيمة، توقفت عن التفكير لحظة رأيتها تهبط السلم تحمل بين يديها صينية كبيرة رصت عليها أطباق كثيرة، وجدتني أهرول ناحيتها حاولت هي بابتسامة أن تمنعني من حملها. ولما يئست قالت بصوتٍ عذبٍ وابتسامةٍ مثله:

ـ نحملها معاً.

كان من الممكن أن تنتهي القصة عند ذلك الحد، أذهب أنا وتتأخر هي في الخروج. ولكن طالما بدأت ستظل تدور وتدور وتبحث حتى تجد نهايتها أياً كان نوع هذه النهاية هذا قدري. وضعنا الصينية بما تحمله من أطباق بيننا، الضوء المتساقط من سقيفة العنب يصنع على الأرض أشكالاً هندسيةً والسماء بدت صافية. جلست شامية مقابلي وجهها نحو الغرب حيث بقية حديقة المنزل ثم السور الغربي، أما أنا فوجهي ناحية الشرق حيث أرى

الداخل من البوابة الكبيرة أما الداخل لا يراني إلا إذا حوّل بصره وعنقه ناحية الجنوب، أسمعُ هدير مياه البحيرة وهو يضرب الشاطئ بعنفٍ، أحاول بكلِّ قوة السيطرة على جوارحي، التي بدأت تجتاح كلّ مليمتر مربع من جسدي. منذ ليلة أمس منذ أن فتحت الباب ورأيتها أعتقد أن كل ذرات جسدي اجتمعت الآن في تحريك رأسي وتثبيته حتى تغوص عيناي في عينيها على هذا النحو الغريب والغير مألوف والذي لم أعهده من قبل ولا أجرؤ على فعله، العينان واحة خضراء تظلّلهما غابة من الأهداب الطويلة، مراراً حاولت العينان الخضراوان الهروب من عينيّ المصوبتين واللتين تحاولان الغوص فيهما. يخرج صوتها العذب:

ـ بسم الله.. مد يدك.

أسمع الصوت جيداً ولكني لأسباب لا أعرفها لا أملك التحول عنها مازلت أغوص في الواحة الخضراء تسبح عيني في كل مليمتر مربع من هذا الوجه الملائكي. أطوف على كل أجزائه، غير مصدقٍ حتى الآن أنّها حقيقة، أهو الحلم وأنني أحلم أحلام يقظتي تطول كل بلاد العالم بينما أنا جالس في غرفتي، أو نائم في سريري أهو الحلم.

- أستاذ "فايز"، خذ هذه البيضة.

تصحو روحي المصوبة نحو هذا الجمال، أنظر إلى البيضة بين أصابع يدها الغضة البيضاء المشبعة بحمرة طبيعية، والتي تفوق بياض البيضة نفسها. تتحرك يدي نحو يدها، تعانق أناملي أناملها في لهفة وشوق، بينما عينيّ ما زالت تطوف وتتلذذ في محراب هذا الجمال. يدي في أحيانٍ كثيرة كانت تضل الأطباق، وتضل وكذلك فمي. فتصطدم بما تحمله من طعام في شفتي أو في أنفي ولا أعرف حتى الآن ما كانت يدي تأخذ من الأطباق، وماذا أكلت؟ وهل كانت ما تحمله يدي طعام أم لا.

-أستاذ "فايز" منذ ليلة أمس أريد أن أسألك سؤالاً.

الفم صغير دقيق والشفتان لها لون الفراولة أما الأسنان بيضاء صفان من اللؤلؤ تلمعان في صباح شتوي رائع، لا أعرف كم من الوقت مر قبل أن أرد عليها.

ـ سؤال واحد.

- في الحقيقة سؤالين ربما أكثر.

- قولي أسمعكِ.

ـ تعاهدني أولاً على الصدق، وعلى ألا يفشي أحدنا سر الآخر.

- أعاهدك وهذه يدي وأقسم على ذلك.

- من هي "نور" التي ناديتني بها أمس؟

- "نور" رائعة الجمال تشبهكِ. لا... ولكنك أكثر بهاءً من أي امرأة في العالم. لكن على كلِّ الأحوال، كانت تعيش هنا في بلدتنا، منذ زمنٍ بعيدٍ ربما قبل أن يولد أبي. ماتت حزناً على موت إبراهيم زوجها، سوف آخذك إلى المكان التي كانت تجلس به تنتظر الموت حتى ترى إبراهيم في العالم الآخر كما كانت تقول، بانتظار السؤال الثاني.

- نعم... ما قلته للطبيب أمس أعجبني كثيراً، رغم أنه من المستحيل أن يتحقق حتى في المستقبل البعيد، هل يمكن أن يعالج الطب الموت، وأن يضع حداً له.

- هذا لن يتحقق لأن الله عز وجل خلق الموت لتموت كل المخلوقات، حتى الموت سيأتي وقته ليموت ولا يبقى إلا الله سبحانه الحيّ الذي لا يموت.

- تعرف إذاً أن ما قلته للطبيب لن يتحقق، فلماذا قلته؟!.

- حتى أضع حداً لغروره المتزايد.

- فيما سيؤثر علينا غروره، إذا كان يقوم بعمله المطلوب تجاه عمك ولم يتأخر! أنت لا تقول الحقيقة.

- نعم هي ليست الحقيقة، والحقيقة أنني لاحظت أنه ينظر إليكِ طول الوقت، وكذلك يتعلل بفعل أشياء من شأنها تطيل الوقت حتى يتحدث معك.

- يفعل كل ذلك من أجل الوقوف معي!.

- هكذا خيل لي يا زوجة عمي.

ـ لا تقل زوجة عمي، قل شامية أنت أكبر مني سناً.

ـ السن ليس له علاقة، إنّه العرف والتقاليد يا زوجة عمي.

- من أجلي... نادِني باسمي وأنا سوف أناديك بدون كلمة أستاذ، اتفقنا يا فايز.

- اتفقنا يا شامية.

- هل تعرف هذا الطبيب من قبل؟

- لا أعرفه، أول مرة أراه.

- نبرات صوتك وتعبيرات وجهك كانت تحمل غضب كبير، هل؟ كلّ ذلك من أجل أنّه تحدث معي.

- ربما ذلك ولأن عمي كان قد أخذ الجرعة الثالثة وما زلنا ننتظر، وربما..... لم أستطِع أن أكملَ الجملة كنت سأقول لها ربما لأنني أعشقك منذ سمعت روحي صوتك بالأمس، إذا لم تردعه هذه الكلمات كنت سأقتله من أجلك أنتِ، ربما قرأت ذلك في عيني المصوبتين نحوها، فقد لاحظت توهج وجهها

وتلك الابتسامة وهذه اللمعة في عينيها الخضراوين وتحرجها الذي بدا فجأة أبعدت وجهها متعللة بأشياء أخرى، وقفت، ما أجمل استقامة عودها وما أجمل تفصيل جسدها.

- ثوانٍ وأعود بالشاي.

أعاني اضطراباً غير عادي، فلم أعد أسيطر على جسدي ينتفض كأني مقبل على شيءٍ خطير، رفعت ذراعي إلى أعلى وشاهدت بعيني ارتعاشة يديّ وأصابعي لحظة واحدة حتى عمت هذه الرعشة كل جسدي. فكرت في الهروب وهممت بالانصراف ومغادرة المكان قبل أن تأتي، أعرف هذه الرعشة التي تجتاحني منذ زمنٍ بعيدٍ كلما اقتربت من أي فتاة "من أجل العشق يا ولدي سوف تقتل أعز الناس" هل أقتل عمي من أجل "شامية"، إذا كان عمي أقرب الناس وأنا فعلاً أعشق "شامية" فهذا سبب منطقي. فلماذا تلازمني إذاً هذه الرعشة عندما أتحدث مع أي فتاة في المدينة أو في الجامعة مع أنَّ أبيها أو أهلها لم يكن لهم أي صلة بنا، أهو الخوف أم تأثير تلك الغجرية، التي دمرت حلمي كأي شاب في الحب، والزواج بمن أحب. عندما بدأت قدمي الانصياع مؤخراً لإشارات المخ بالقيام كانت تقف أمامي تحمل صينية الشاي.

- هل تأخرت؟

- لا.

ازدادت الرعشة، بدأت أسناني تصطك ببعضها، صمتُ حتى هدأت نفسي، أخذت رشفة من كوب الشاي ثم أخرى ثم ثالثة ثم نظرت إليها ارتسمت في عينيها الخضراوين علامات قلق، هبت رياح باردة راحت تصفر بين الأشجار وفي أذني وبدأت تتجمع قطع سوداء من السحب في السماء، همَمْتُ بسؤالها، للحظة غير قصيرة تجمعت الحروف دون أن تخرج، ظللتُ هكذا دون حراك، توقف قلبي عن الخفقان وكاد الدم يهرب من شراييني.

- تريد أن تسأل عن شيء.

جاءت إيماءة رأسي دون كلام.

- قبل أن تسأل يا "فايز" لي سؤال أخير. بخصوص المشاهد التي حدثت بالأمس، ترفع الفانوس وتمرره أمام وجهي ثم تقول عمي من، هل لي عم، ثم تمرر كف يدك أمام وجهي.

لم تستطع حبس ضحكاتها. تعود بعد برهة قصيرة للحديث:

ـ لم أجدك تدخن وخلقك يمنعك عن تناول الخمور أو ما شابه ذلك، هل عندك تبرير لذلك؟؟

أهو الحلم، أم هي حقيقة لم أعد أعرف اختلطت عليَّ الأمور، أرى انعكاس ثوبها الأخضر، متموجاً في ثنايا الحشائش الخضراء، وأوراق وفروع العنب المتدلية بجوارها. أظن أنه سراب آخر أحاول الزحف والاقتراب منها حتى ألتصق بها تماماً كي يطمئن قلبي وأتأكد أنها ليست حلماً أو سراباً، جدائل شعرها الليلي تنام على ظهرها تنساب حتى الحصير خلفها وجهها الأبيض المدور كبدرٍ، عيناها الخضراوان الواسعتان، أهو الحلم لم أعد أحتمل المزيد صرخت مرة واحدة ودفعة واحدة.

- للإجابة على تلك المشاهد أولاً هل أنت حقيقة يا شامية أم أنه الحلم؟!

- حقيقة أم حلم، أيّ كلام هذا!!

تشير إلى نفسها كأنّها تقول أنا فعلاً موجودة فكيف أكون حلماً.

- هذه هي إجابتي يا شامية، منذ أن رأيتك بالأمس وحتى الآن وأنا لا أعرف هل هو حلم أم أنها الحقيقة، لم أرَ جمالاً مثلك من قبل فكيف لي أن أصدق، كنائم اختلطت عليه الأمور، وهذا سيجعلني أهرب ولا أفكر بالعودة إلى هنا مرة ثانية. أضيفي على ذلك أن حياتي كلها حلم كبير. منذ كنت صغيراً أنام وحيداً وإلى الآن لم تغادرني أحلام يقظتي. تأخذني إلى كل بلاد العالم أموت في نهاية كل قصة ثم أولد من جديد بالأمس كنت في اليونان وقبلها

كنت في النمسا وفرنسا مع العلم أنني سافرت فعلاً إليها وعملت بها فترة الإجازة الصيفية وشاهدت برج إيفل والحي اللاتيني تجولت في باريس وغيرها من المدن.

- والآن ماذا ترى هل أنا سراب أم حقيقة؟.

- منذ ليلة أمس، تهاجمني الكوابيس. يقولون أنّ الكوابيس لا تزول. لعلّهم على حق لأنّها تلازمني منذ نبوءة العرافة كلماتها التي قالتها، كلّ ذلك جعلني غير مصدق.

- لا صدق أنا حقيقة، أنا شامية الحسن أو شامية شبّاط كما كانوا يحلو لهم أن ينادوا أبي رحمه الله، حيث كان دائم الشجار من أقل كلمة يشبّطُ مع أي أحد مهما كانت النتائج أو حتى العواقب، قالوا أنّه ورث من أبيه ضعف الأعصاب، ولكن الناس لم يتركوه في حاله ضايقوه وافتعلوا معه المشاكل من أجل التسلية والضحك فلم تتحمل أعصابه المزيد، مات رغم صغر سنه وتركنا تحت رحمة أخي الكبير. بعد زواجه نفرَ وملَّ من مصاريف المدرسة والبيت، رغم أن أمي وأخي الصغير في حياة أبي، لم يعملا في مزارع أحد بعد أن مات نزلا للعمل في مواسم الحصاد وغيرها، أشفق على أخي الصغير" سالم " حين يقوم بعد الفجر، ينادي عليه متعهد الأنفار، يقوم من نومه نحيفاً

يخبُّ في ملابسه، تحتضنه أمي وحين تهم بالبكاء يمسح لها دموعها، ثم يأخذها هذا الصغير في حضنه، وبصوته الطفولي يقول لها: " لا تبكي لم أعد طفلاً أنا رجل " تقول له وهو ما زال في حضنها: "والله ما زلت صغيراً على العمل والبهدلة يا كبد أمك " تلف له الفطور والغداء في منديل ثم تقوم بربطه على وسطه النحيف، تفتح له الباب يخرج في غبش الفجر. هذا ظلم... من في سنه ما زالوا في أحضان أمهاتهم. نجلس بعد خروجه أشاركها البكاء ثم تستعد هي للخروج، حاولت مرات كثيرة الخروج معهم ولكنها رفضة باستماته وبكاء، كنت وقتها في الصف الثالث الإعدادي والحمد لله نجحت وكنت الأولى على المدرسة ودخلت ثانوي عام وتحملت أمي مصاريف السنة الأولى والثانية، زاد طموحي وحلمي كبر. وصار يلازمني طوال الوقت أن أدخل كلية الطب، حتى جاء عمك "غالب" وطلب يدي في الإجازة الصيفية، رفضت أمي بشدة وقالت لأخي الكبير: "شامية" ما زالت تتعلم، وهي صغيرة على الزواج تدخلت "هنادي" زوجة أخي سامحها الله في إقناع أمي والدفاع عن زوجها الذي لم يتحمل سوى القليل في نفقات التعليم، وتحت ضغوط أخي وزوجته، ووسوسة الجيران عنده أرض ملك وغني ووحداني ليس له أم أو أب وعنده بيت كبير بجنينة واسعة على البحيرة ورغم ذلك إذا أرادت أن تكمل تعليمها

فإن "غالب" رجل طيب لن يمانع والزواج أفضل شيء للبنت، وأنت ربنا يطول عمرك زوجيها واطمئني عليها في حياتك0 تحت هذا الضغط وافقت أمي في خلال شهرين كنت هنا، وزملائي الآن يستعدون للامتحانات وكلها شهور ويدخلون الجامعة، وأنا كل أحلامي تحطمت، لحظة واحدة ثم أجهشت في البكاء، عيناها الخضراوان تلمعان بحمرةٍ. في تردد واضح أقتربُ ثم أعودُ ولا أعرف ماذا أفعل حتى تشجعت وبدا لي أني صرت إنساناً آخراً، تقدمت منها أضعُ وجهها بيدي وراحت أصابعي تمسح دموعها من على خدين صُنعا من مرمر وأنا أقول لها:

ـ ليس العام القادم بل هذا العام سوف أقدم لك كل الأوراق المطلوبة وسوف تدخلين الامتحانات مع زملائك، هذا وعد مني أقسم لك أنها حقيقة وليس كلام مجاملة.

وأنا أمسح دموعها انتابتني رعشة حقيقية، سَرتْ في بدني لحظة مرور أصابعي على خديها لم أصدق أني أستطيع فعل ذلك. ثم رحتُ أمسح ما تبقى من دموعها حتى هدَأت واستكانت، قدمت لها كوب الماء شربت ثم وضعته وأكملت حديثها.

- منذ الأسبوع الأول لزواجي حاولت الهروب والعودة إلى أمي، انتهزت خروج عمك كما هي العادة إلى الأرض عقب صلاة الفجر، أخذت ملابسي ومصاغي وخروفاً كان هدية أمي لنا، خرجت ولم يشاهدني أحد لبعد البيت عن بيوت البلدة، سرت باتجاه بلدتي، وكان عليَّ أن أمر على ثلاثة بلاد حتى أصل إليها، مررت على الأولى بحماسٍ ثم فتر هذا الحماس قبل أن أصل الثانية، جلست أستريحُ برهة من الزمن أخرجت بعض الطعام وأكلت، والخروف بجواري يأكلُ بعض الحشائش وبعد أن انتهيت ألقيت بعض اللقيمات في البحر، لحظة وأسرعت بعض الأسماك وأكلتها، بدا عقلي في التفكير وطرح عدة أسئلة، ماذا سيفعل أخي وزوجته وماذا ستقول أمي التي حمدت الله على زواجي في حياتها، هل سأكون عبئاً على "سالم" الصغير وسبباً في خروجه من المدرسة. سوف تفرح زوجة أخي وتشمت وتقول لأمي انظري بنتك لم تعرف أن تُعايش نفسها رغم أنها في بيت كبير بمفردها. سوف تبكي أمي وتلطم خدها وكذلك يبكي أخي الصغير لبكائها. قلت في نفسي ليس لي شيء في بيت أمي، حتى سريري أخذته لم تنتظر حتى بعد الفرح، جاءت تضحك وتقول لي وهي تفكه وتأخذه استحملي أنت كم يوم يا "شامية" أولاد أخوك صغار

والأرض ناشفة عليهم. لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك لملمت أغراضي وعدت مسرعة إلى بيتي، وعرفت أن كل شيء قد ضاع وأن هذا هو أمر واقع. لم يعرف أحد بما حدث هذا غيرك، ما دفعني إلى التحدث معك والبوح بأسراري هو وجه التشابه بيننا. ووجود سلطة قهر عند كل منا أضف إلى ذلك حنو قلبك. لمست هذا ليلة أمس وأنت تأخذني من يدي، دون أن تنطق كلمة واحدة حيث الاستراحة وتقدم لي الطعام والشاي وما فعلته مع الطبيب لمجرد أنه بدأ بالتقرب مني. وكذلك ماحكاه عمك عنك، وعن أخلاقك وعن معاناتك منذ طفولتك.

- اليوم سوف أتحدث مع عمي، في مواصلة تعليمك وكلي ثقة في إقناعه، لكن لي طلب عندك شامية.

صمتت لحظة وعينيّ ما زالت تنهل من الواحة الخضراء وتطوف كل أرجاء هذا الوجه السماوي

- اطلب يا فايز.

- شعبة علمي صعبة وتحتاج الحضور إلى المدرسة يومياً، وأخذ دروس وهو أمر غير متوفر هنا، غير أن المتبقي على الامتحانات قليل بالإضافة إلى أنَّ كلية الطب إذا تحقق الحلم بالوصول إليها، فهي كلية عملية تحتاج إلى الذهاب

يومياً وحضور محاضرات التشريح وغيرها. الأمر الذي يجعلك لا تعودي قبل المساء وعندك زوج وهناك بالتأكيد بشائر حمل، لذا أقترح عليك أن أقدم أوراقك في شعبة أدبي وكلية الحقوق أو الآداب ليست قليلة.

- مقتنعة بكلّ حرف وكلّ كلمة قلتها ولكني أخاف من التشبث بالحلم.

- أقسمت لك، تشبثي في الحلم وفي الأمل ولن أخذلك، من غدٍ استعدي للمذاكرة وعندك وقتٌ كافٍ كي أشرح لك كل المواد.

ـ ولكن كيف سيحدث ذلك وقد تم فصلي من المدرسة؟.

- هناك طرق كثيرة "شامية"، أعرف صديقاً يعمل في مستشفى المركز سوف آخذ لك منه شهادة مرضية مختومة بختم شعار الجمهورية ثم أعود إلى مدرستك في كفر مندور أقدم لك طلب برفع مدة الغياب وأرفق معه الشهادة المرضية أو أقدم لك إعادة قيد تذهبي مرة كل أسبوع حتى ملء استمارة التقديم وبعدها لا تذهبي إلا في الامتحانات.

- وهل سيوافق عمك على ذهابي يوم في الأسبوع؟.

- كفر مندور قريبة من هنا ولا تحتاج إلى مواصلات وقبل الظهر ستكونين هنا وعمي يخرج إلى الغيط بعد صلاة الفجر، ولا يعود إلا بعد المغرب، إذا لم يوافق أعرف سكرتير المدرسة وسوف أزوره في بيته وأقدم له هدية. أعرف

أنه يأخذ هدايا ويرفع الغياب والمدة المتبقية على ملء الاستمارات أقل من شهرين. كل ما أحتاجه منك، فقط هو ستة صور شخصية واسمك بالكامل

- هل هذا حلم أم حقيقة؟ لعلّي أحلم.

- تقولين مثلما كنت أقول من دقائق، أعرف مكتبة في المدينة تبيع الكتب سأشتري لك كلّ الكتب والملخصات والكشاكيل والأقلام وكل ما يخصك.

- هو حلمٌ وعليّ ألا أعيش فيه حتى يتحقق، لا أحتمل أكثر من ذلك.

- سيتحقق بإذن الله وغداً ليس ببعيد.

- قلت منذ قليل نبوءة العرافة أي عرافة، وما هي تلك النبوءة؟؟

- هذه حكاية طويلة حدثت منذ زمن بعيد سأحكي لك فيما بعد.

- هذه النبوءة هي التي تجعلك تفكر في الهروب وعدم العودة، وكل هذا حدث منذ رأيتني بالأمس. إذاً أنا السبب؟ وكيف أكون أنا السبب وأنت تقول أنّها منذ زمن بعيد. بالله عليك يا "فايز" أحكي لي كيف أكون السبب وأنا لم أكن موجودة.

- رغم صعوبة الموضوع، إلا أنني سوف أحكي لك، حتى أخفف عن كاهلي حملاً ثقيلاً. كان هذا منذ زمنٍ بعيدٍ ربما كان عمري لم يتعدَ الخامسة، كنت مع أمي رحمها الله نزور المقابر وكان يوم عيد على ما أعتقد، استوقفتنا عرافة

عجوز لم نرها من قبل مع أولئك الغجريات اللاتي يجُبنَ القرى يضربن الودع. قالوا عنها أنّها حكيمة الغجر، أتوا بها لتعلمهم أمور حياتهم من معرفة الودع قراءة الكف وبعض الأعشاب والطب القديم وأشياء من هذا القبيل، تمكث فترة قليلة ثم يأتي آخرون ليأخذوها وهكذا ليس لها عنوان أو مكان، فهي تجوب كل البلاد. كانت غيرهم لم تتحدث عن أمور دائماً تتحقق لأنها مرتبطة بحياة الأهالي اليومية مثلما تقول الواحدة منهن " هناك فرح على بعد خطوتين أو عريس أو رزق أو سعادة أو حزن." إنما هذه العجوز التي استوقفتنا رغماً عنا حدثتنا عن أشياء ستحدث في المستقبل، أعطت الأدلة والوصف الدقيق لما سيحدث لي بمجرد رؤيتها قالت:

ـ بسبب العشق سوف تقتل أقرب الناس لك يا ولدي. ستعشقها من الوهلة الأولى من لحظة وقوع عينيك في عينيها، سوف تتصلب مكانك ويغيب عقلك وكأنه الحلم. هو مولانا العشق يا ولدي قلوبنا في يده ليس لنا عليه سلطان. دائماً ما يبدأ الأمر باضطراب في الهرمونات حيث أكد الطب على ذلك. يفرز المخ هرموناً يجعلنا نشعر بالانجذاب نحوه شخصٍ ما، يكون ذلك نوعاً من الكيمياء المتبادلة بين اثنين ثم يتعدى الأمر الكيمياء. مسكين يا ولدي كتب عليك العشق، ستقتله مثلما أرى الآن لحظة موته. تركت أمي

وانطلقت أعدو من الخوف وأمي من خلفي وكلماتها من بعيد تدوي في أذني ستقتله، ستقتله مسكين كتب عليك.

- "كذب المنجمون ولو صدقوا "

- أعرف ذلك جيداً، ولكن كل ما قالته من وصف لحظة اللقاء قد حدث.

- هل أنا المقصودة بهذا اللقاء.

- نعم... أنت "شامية" أحبك، أعشقك من اللحظة الأولى، منذ سمعت صوتك. أفضّلُ الموت عن لمس شعرة واحدة من عمي "غالب" إذا كان لأحد فضل عليّ بعد الله سيكون لعمي "غالب".

- أنت إنسان متعلم، وتعرف أكثر مني، وتعلم أن الغيب لا يعلمه أحد سوى الله عز وجل، وأن النفع والضرر بيد الله وحده، وليس بيد أحد غيره، توكل على الله ولتخرج العرافة ونبوءتها من عقلك وتفكيرك.

لم تتخيل "شامية" أن حلمها في طريقه للتحقق أو حتى أنه قابل للتحقق وقفت كصنم لا تصدق ما تسمعه حين حدثها عمي "غالب" وحكته لي بالتفاصيل بعد ذلك، حين قال لها:

-جاءني "فايز" اليوم عصراً وطلب مني الموافقة على أن تكملي دراستكِ، وقال أن دراستكِ ستكون منازل، فرح بشدة عندما وافقت قبل رأسي ويدي

ورفض أن يأخذ أي أموال، وقال أنه سيذهب في الصباح الباكر إلى مستشفى المركز لاستخراج شهادة مرضية لك، ثم يذهب إلى المدرسة لإعادة قيدك وشراء كتب.

قالت مازالت مذهولة غير مصدقة لم أعد أدري بنفسي حين وقعت مغشياً عليّ بين ذراعي عمك "غالب" الذي راح يسكب عليّ الماء وأنا أبكي من فرط السعادة وأرتمي بين أحضانه. وهو يمسح عن وجهي الماء ويقول لي:

- أعرف عشقك للمدرسة، مثل عشقي للأرض، لذلك وافقت لأني سوف أكره من يحرمني من الأرض، وأنا لا أريد كرهك لي يا "شامية". قال لي "فايز" ربنا ينور عقله " يا عمي ماذا ستفعل إذا حرمك أحد ما من أرضك هذه " قلت له: أقطعه وأمزقه أشلاء صغيرة. قال: " وإذا كانوا أقوى منك ولم تستطع وتكالبوا عليك هل ستحبهم " قلت: لا سوف أكرههم. قال " كذلك هي ولكن هي لا تكرهك أنت يا عمي، إنما تكره الأيام والظروف التي حرمتها من المدرسة.

قالت لي بعد ذلك أنها لم تذق طعم النوم في هذه الليلة، مازالت غير مصدقة ما سمعته. تحدث نفسها أنها لا محالة تحلم وسرعان ما تفيق منه على واقع الحرمان والتمني. لكنها تقول بل سمعته بالفعل ولم أتعود منه الكذب أو

حتى الرجوع في قرار أخذهُ، ولكن إذا جاء الرفض من المدرسة وفشل "فايز" في إقناعهم. تكرر الاسم مرة ثانية وتعطيه بعض المد "فاااااايز" ثم تعيد ما قلته من كلمات لإقناع عمي. ثم تستعرض ما قلته بالأمس واعترافي لها بهذا الحب الطاهر، ترتعد فجأة وتقول وعمه ماذا سيفعل؟ ونبوءة العرافة هل ستتحقق ويقتل عمه؟! لا... لا... لن أكون السبب، ولكن لماذا أحبني أنا بالذات، تصمت تزداد ضربات قلبها، تبكي بكاءً حارقاً تلعن حظها وتلوم الزمن، لماذا أنا ثم تروح في بكاء صامت طويل لا ينتهي.

أما أنا ظللتُ أتقلب في الفراش طوال الليل أتعجل الشمس في الشروق كي أفي بعهدي لها، أحدث نفسي، هل اخطأت في البوح لها بحبي؟ "هي لم تتحدث!". "وماذا كنت تريدها أن تقول؟ " "سخيف أنت هل كنت تتوقع أن تأخذك في أحضانها وتقول لك وهي تعاتبك لماذا تأخرت كل هذا ؟! من الطبيعي أنها سوف تصمت. كان الأرجح لك أن تنتظر قليلاً "، "ولكن هل كلامها عن نبوءة العرافة صحيح؟"، "نعم صحيح، هل جننت ألا تعرف أن النفع والضرر بيد الله وحده عز وجل؟"، "أعرف، أعرف ذلك جيداً ولكني لا أقصد ذلك"، "ماذا تقصد إذاً"، أقصد أنني وهمت نفسي عمراً طويلاً وعليّ من الآن أن أخرجها من عقلي وتفكيري"، "شامية". "لا العرافة". "ولكنك قلت

أنّ ما قالته العرافة من وصف اللقاء والأحداث قد حدث بالفعل". "ربما كانت الخبرة والتدريب على إرباك الآخرين، وجعلهم دائماً في أشد الحاجة إلى هؤلاء الغجر ". "إذاً ولماذا استوقفتك أنت بالذات؟! وأنت كنت طفلاً ربما أنساك الزمن. كان عليها أن تستوقف شاباً مثلاً" "ربما لأن طول الزمن هنا لصالحها"، "قلت أنّها قالت لك إنني أرى لحظة موته وظلت ترددها وحتى بعد أن هربت أنت ولذتَ بالفرار"، "ربما قالت ذلك حتى تكون مختلفة عنهم". "عمّن؟!". "عن أولئك الغجريات". "آه وماذا تريد إذاً". "أن مع قولها، كذب المنجمون ولو صدقوا". "أنت إذاً الذي قلت". "قلت ماذا؟". "ولو صدقوا". "أغرب عن وجهي لا أريد الحديث معك ولن ألتفت إليك مرة أخرى". "أنت بذلك تهرب"، "أنا حر".

مر الليل وخرج عمي "غالب" كالعادة إلى أرضه وجلست تمني نفسها وتصل بأحلامها عنان السماء، الوقت يمر بطيئاً كسلحفاةٍ عجوز، الشمس توسطت كبد السماء. تقول "فايز" لم يأتِ، هل رفض ناظر المدرسة الطلب، لا.. إذاً لماذا تأخر، المواصلات والمسافة من الطريق، حتى البلدة يقطعها سيراً على الأقدام، لم تصدق نفسها حين سمعت صوتي بالخارج وأنا أنادي وأطرق البوابة

الكبيرة. خرجت مسرعة، كنت أقف عند البوابة الخارجية ما أن رأيتها حتى تهللت أساريري وأنا أقول لها في فرحٍ عارمٍ.

- ألف ألف مليون مبارك.... أنت الآن مقيدة بالصف الثالث الثانوي شعبة أدبي، أنهيت كل الأوراق المطلوبة وهذه كل الكتب لشعبة الأدبي.

لم تصدق!! أخذت الكتب وهي مازالت تمسك بيدي نحو سقيفة العنب، جلستُ وجلست بجواره تقلب في الكتب غير مصدقة.

- هذا كتاب اللغة الإنجليزية وهذا كتاب اللغة الفرنسية واللغة العربية.

أتدخل قائلاً:

- أما هذه كتب التخصص هذا كتاب علم النفس والفلسفة.

تمسك في مرح طفولي بقية الكتب وتقول:

- وهذا كتاب الجغرافية والتاريخ.

تضع الكتب في حضنها ثم تنظر إليّ في حبٍّ جارفٍ قائلة.

- ماذا أقدم لك مهما قدمت لك لا يساوي صنيعك سيظل طوقاً في عنقي طول العمر، أنت وحدك من أعدت لي الحياة كنت شبه ميتة.

- هو ليس جميلاً بل هو واجبٌ عليّ.

- أشكرك كل كلمات الشكر غير كافية.

قالت ذلك وهي مازالت تبكي وتحيط وجهي بكفيها وتضع قبلة سريعة على خدي. ثم تسرع إلى الداخل وقبل أن تختفي تنظر إليّ وتقول لي:

- لا تذهب خمسة دقائق والغداء يكون جاهزاً.

ما أن دخل سلطان البيت حتى قابلته "عرب" كعادته كل يوم قائلة في تجهم.

- هو المحروس ابنك سافر.

- لا... لم يسافر ذهب إلى المركز، من أجل زوجة عمه، سوف يقدم لها في المدرسة.

- المدرسة، يا مئة خسارة.

قالتها وهي تمص شفتيها وتقلب فمها ثم أردفت قائلة.

- هو لما شاب اتعلم في الكُتاب!! عجايب.

- هو من الذي شاب يا مجنونة، لو كنتِ أنجبتِ منذ أن تزوجتك أنا، وليس من زوجك الأول، كان الآن عندك أولاد في سن شامية، أو أكبر، أنتِ في سن أمها أو جدتها.

- أنا في سن جدتها!! لا أنت رجل كبرت وشاخ عقلك. يعني ابنك لم يسافر.

- لم يسافر، ولا أعرف ماذا فعل لك، هو منذ كان صغيراً وحتى اليوم مؤدب معك، يغسل ملابسه بنفسه، ويصنع أكله بنفسه، لم يوجه لك شتائماً أو أيّ

أساءة. علامات ضربك منذ كان صغيراً ما زالت على جسده، كان يبكي ويلوذ بالخلاء. من اليوم الأول وأنت تكرهينه مع أنه ابني الوحيد، هو لم ينسَ جميل ما صنعه عمه "غالب" معه، والآن يرد الجميل، كذلك هو يعرف مصلحة نفسه جيداً يجلس متى شاء ويسافر متى أحب، إياك أن تتحدثي معي في هذا الموضوع مرة أخرى.

كنا قد تناولنا الغداء معنا وكذلك الشاي وقبل أن أبدأ في أول الدروس قلتُ لها:

- قبل أن نبدأ عندي سؤال واحد.

- اسأل يا "فايز".

- كيف تعرف عمي "غالب" عليك؟

- هو لم يكن يعرفني ولم يأتِ عندنا من قبل، أخي "حسني" يزرع بعضاً من +أرض "اللواء سلامة " وعمك "غالب" كان يجرف بعض أرض اللواء ويأخذ ترابها، وفي يوم طلب من اللواء كلباً بوليسياً، فأرسل له " فهد ورعد " مع "حسني"، هي المرة الوحيدة التي رآني حين جاء يأخذهما

- تمام الآن نأخذ تاريخ وجغرافية وفي المساء علم نفس وفلسفة وغداً إنجليزي ولغة عربية ولغة فرنسية، هذا يعني أن عندك أسبوع كامل يبدأ

من اليوم السبت وينتهي يوم الخميس وسوف أسافر يوم الجمعة كل يوم أربعة مواد.

- على بركة الله نبدأ... أسمعك أستاذي، ولكن هل؟ وجدت صعوبة في إقناع ناظر المدرسة

- ما أبهرني هو تعاون كل المعلمين وحتى الناظر وكل العاملين بالمدرسة، الموضوع كان في منتهى السهولة، ليس فقط بل أحضر بعضهم كتباً وملخصات، لم أقل لهم أنك متزوجة، وأنت أيضاً لا تقولي، ويوم الثلاثاء سوف أذهب معك. أنتظرك وأنتِ احضري بعض الحصص.

- لماذا لا أقول إني متزوجة؟

- لأني قلت لهم أنك مريضة وقدمت شهادة مرضية تثبت صحة ما أقول. غير ذلك أعتقد أن المتزوجات لهن وضع آخر لا أعرفه. في التعليم ما قبل الجامعي.

- ماذا تعني بما قبل الجامعي يا "فايز"؟

- أعني أن التعليم الثانوي هو ما قبل الجامعة، له بعض القوانين وكذلك التعليم في الجامعة له قوانين مختلفة، فمثلاً يحق للطالب أو الطالبة أن تتزوج

وهي تدرس وأن تنتسب للكلية وتذاكر في المنزل ثم تذهب للامتحانات، ولكن هل نبدأ المذاكرة، أم هناك أسئلة أخرى؟!

- قبل أن نبدأ قلت أنك شاعر فهل أسمعتني شيئاً من أشعارك

- لم يطلب مني أحدٌ من قبل، ولكني سوف أسمعكِ قصيدة.

"هب أنني"[2]

هب أنني أحيا على ذكراك ... والقلب مني قائم يهواك
هل صنت قلباً مرهفاً إحساسه ... أم أنّ قلبي في الهوى ملهاك
تسري على أوتاره حلو السري ... فترق أنغام الهوى بسراك
دق النذير فهالني هذا النوى ... واهتاج مني الرُّوح.. ما أقساك
أقتات بالذكرى ويسعى خاطري ... عبر السكون لعله يلقاك
فيطول يومي والحياة قصيرة ... والليل يسري بي إلى لقياك
لا الصبر يرويني ولا أسلو بهِ ... أبكي وأدعو الله .. لا أبكاك
وأفض قلبي ضارعاً مستعطفاً ... ينهاك عن هذا النوى ينهاك
نحيا على الدنيا كياناً واحداً ... القلب قلبي والدماء دماك
إن عدت أو لا فالليالي متعة ... بك أو لأني عشتهن فداك

- ما أجمل شعرك يا "فايز" وما أروعه فهو يخاطب القلب، أرجو أن تكتبه لتكون معي.

[2] قصيدة هب أنني للشاعر محمد حواس

تلةُ الفجرِ
الفصل السادس

تعمدت أن آخذها من الطريق الذي يوصلنا مباشرة حيث الصخرة التي غفوت بجوارها أيام كنت صغيراً، أشرت لها وأنا أبعد كرة الشوك من طريقها.

- هذه الصخرة غفوت بجانبها حين كنت طفلاً لم يتعدَّ التاسعة من عمره غادرني الأطفال عندما مال قرص الشمس إلى المغيب وبقيت وحدي مدة طويلة سندت رأسي عليها حتى نمت ولا أعرف كم من الوقت مرَّ وحين صحوت لم أخف سلكت طريق المستنقعات وبرك الغاب، لم يكن الأهالي قد زحفوا بالبناء حتى كادوا أن يصلوا إلى البحيرة ولما دخلت البلدة وقعت لي واقعة أعتقد أنها ما زالت لها تأثير سلبي على حياتي حتى الآن.

- رأسك التي تعلقت بين قضيبي حديد الشباك.

- من الذي قال لك؟

- حكي لي عمك عن هذه الواقعة، لم تتخيل كمية الضحك والحزن في آنٍ واحد وما زلت كلما تخيلت المنظر، أضحك وأبكي في آنٍ واحد، أضحك للموقف نفسه وأتخيل هذا الرجل الذي فجأة وجد رأس تحملق فيه داخل هذه الغرفة، وأبكي على طفلٍ صغيرٍ بريء ضُرب بل رحمه وسال دمه، لم يبحث عنه أحد ولم يهتم به أحد، ولكن عمك أخذ حقك وضرب هذا الرجل.

- نعم ذهب بي إلى الطبيب في نفس الليلة، وفي الصباح الباكر أخذني من يدي، ملأ جيوبي حلوى، حملني على كتفه حيث يعمل هذا الرجل، أجلسني تحت شجرة كانت قابعة عند أول الغيط وأشار لي ناحية هذا الرجل قائلاً:

- "الأكتع" هذا الذي ضربك؟" قلت له وأنا أبكي "نعم هو"، صاح عمي بصوتٍ أسكن الرعب في بدني فسرت أرتعد من رؤية "الأكتع" ومن صوت عمي، وهو يصيح يا "أكتع" توقف الرجل نظر ناحيتنا وضع يده فوق جبينه وحدق جيداً، ثم شدَّ طوله وجذب الفأس وانطلق نحونا كثورٍ هائجٍ وهو يصيح بقوة "ألم تعلم ماذا فعل بنا هذا الطفل؟" رد عليه عمي: "قلت طفل، وهل يعرف هذا الطفل شيئاً عما كنتما تفعلانه"، أيضرب رجل طفلاً بهذه القسوة! حاول الرجل إخافة عمي بصوته الجهوري والفأس التي بيده، لما اقترب هوى بالفأس بكل قوته، من مكاني أشاهد لامعة الفأس وهو ينطلق نحو الرأس، في المنتصف تماماً، في لمح البصر كانت خطوته أسرع من الفأس الذي هوى من أمامه إلى الأرض، وقبل أن يرفعه مرة أخرى، كانت قدم عمي قد غاصت في بطنه وألقت به بعيداً، وبقبضات محكمةٍ في وجه "الأكتع" لا أعرف عددها، أجبرته على التقهقر، حتى أطاحت به بعيداً، وقبل أن يقف غاصت قدمه مرات في أضلاعه، هبَّ الأكتع واقفاً يئن وهو يضع يده على أضلاعه

المنكسرة، هرول ناحية الشجرة بالقرب مني، أخذ عصاه من تحت أغراضه، لم يترك عمي فرصة له صد ضرباته المتلاحقة بالفأس. لحظات قليلة كان رأس عمي قد هشمت وجهه وقع بجواري. أخذ عمي عصا الأكتع، وبدأت موجات الألم والصراخ مع كلّ ضربة يتلقاه والتي شملت أنحاء متفرقة من جسده، لم يكتفِ عمي بذلك بل حمله بين ذراعيه وهوى به على الأرض وسحق بحذائه رأسه ووجهه. حتى الآن لا أعرف هل كان عمي ينوي قتله أو كان مجرد تأديب، تجمع عشرة رجال أو أكثر استطاعوا بشق الأنفس أن يأخذوا هذا الرجل من بين يديه قبل أن يموت، أخذ عمي العصا والفأس، حملني فوق كتفيه بينما ساقاي تتدليان فوق صدره، ظلَّ "الأكتع" هذا طريح الفراش مدة طويلة، حتى بعد خروجه كان إذا رآني أنا أو عمي في شارع سلك طريقاً آخر، لم أتركه بل دبرت له مكائد كثيرة دون أنْ يراني. في أثناء الحديث كنا قد وصلنا إلى المقابر أشرت لها قائلاً:

- هذه مقبرة أمي وجدتي، وهذه مقبرة جدي.

تجمع حولنا الصبية من كل مكان، فهم ينتظرون بفارغ الصبر مثل هذه المناسبات التي يخرج فيها أهل بلدتنا والبلاد المجاورة لزيارة موتاهم. كان معهم مقرئ أخذ يرتل الآيات القرآنية في خشوع وما أن فرغ من التلاوة

كنا قد وزعنا ما كان معنا من فاكهة وقرص ونقود، سرنا حيث شجرة التوت العملاقة التي تغطي ظلالها مساحة عظيمة تصل إلى الموتى وضريح "إبراهيم العاشق " الذي تجمّع الناس حوله من كلّ النجوع ومعهم نزورهم، سرنا خلفه من ناحية الجنوب.

فالمقام على الحافة الجنوبية يطل بابه على المقابر مباشرة والتي تبدو محصورة بينه وبين أرض البراري ثم البحيرة في الشمال وكأنه الحارس حيث تجلس" منذورة " نقيبة الشيخ تجمع الهبات والنذور، يقولون أنهم أقارب الشيخ "إبراهيم" قسّموا أنفسهم مجموعات بعد مشاجرات طويلة على أحقية كلٍّ منهم في أخذ النذور، وبعد تدخل البعض. وافقوا على أن تأخذ كلّ مجموعة نظافة المقام وجمع النذور لمدة أسبوع وتسلم الآخر. وكل مجموعة وحظها فيما جمعت، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة وشمس الشتاء في هذا الوقت ممتعة، فرشت "شامية" حصيراً صغيراً وبدأت برص طعام إفطارنا. ارتكزت بظهري على حائط المقام وبينما الطعام يفصلنا بعضاً عن البعض، كانت عيناي تطوف أنحاء المخلوق السماوي الذي حوى داخله كل ضياء الدنيا، خرجت ابتسامة عذبة على خجل قالت:

- لم تقل لي من هي " نور وإبراهيم" وماهي حكاية هذا الضريح الذي صار مكاناً للقاء الأحبة من كل مكان؟!.

- عندك استعداد لسماع القصة كاملة، فهي طويلة.

- نعم عندي استعداد وشوق جارف لسماع قصتهم كاملة.

- إذاً نأكل أولاً، بعدها أحكي لك حكايتهم.

بين فترة وأخرى كانت تطل من زاوية الضريح رأس أحدهم ثم تختفي كومضة. جمعت بقايا الطعام، لم تتفاجأ من عيني اللتين تنهلا منها، أضافت بسمتها عذوبة وجمالاً على هذا الوجه المشرق وهي تقول:

- أسمعك الآن.

اعتدلتُ في جلستي... بينما ظلت عيناي تطوفان وتتحركان وتتابعان بشغفٍ كل مالم تكتشفه في الأيام السابقة. بينما هي قد حشدت كل حواسها لسماع ما سوف أقوله حين بدأتُ أسرد لها القصة.

- كانت بلدتنا منذ زمنٍ بعيدٍ مُوغلٍ في القدم، قبل أن يولد أبي وربما جدي اسمها " كفر سنارة "، نظراً لوجود الصيادين بها صيفاً وشتاءً، حتى بعد بناء "محمد الأمين" بيته ودكانه في وسط الواسعاية بجوار شجرة الكافور الضخمة التي التصق ركن من أركان هذا الدكان بهذه الشجرة العظيمة. لم يكن "محمد

الأمين" من بلدتنا أو حتى من البلاد المجاورة أو البعيدة. لا أحد يعرف بلدته أو من أين جاء، حتى أصله ظلَّ مجهولاً حتى الآن. قالوا كان يأتي سابقاً كل جمعة من كل أسبوع بعربته، التي يجرها حمار ضعيف واهن لم يتغير. ومعه غلام كان يتغير كل فترة من الزمن حيث يأتي آخر بدلاً منه، يمسك "محمد الأمين" بلجام الحمار العجوز. الذي يخطو ببطءٍ شديدٍ يجعل صاحبه دائم السخط عليه، يوجه له السباب واللعنات بينما الغلام يسير خلف العربة، حتى لا يتعلق الأولاد بها من الخلف فيعجز الحمار عن السير ويتوقف الموكب للحظات، وإن فعلوا، وتوقف الحمار نظر إلى صاحبه الذي ينادي بصوته العالي على الغلام أن يهش الأولاد، وتحت شجرة الكافور الضخمة يقف الحمار تلقائياً يخرج "محمد الأمين" مجموعة أشولة حاكها ببعضها ثم يسحب أربعة قوائم حديدية يبدأ بحفر الحفر القديمة نفسها، يثبت القوائم ويشد عليها الأشولة المحاكة ببعضها فيعم الظل المكان، يفرش الحصير ويضع بضاعته كل ما تحتاجه النساء من توابل وعطارة وعسل أسود وحلاوة طحينة وصابون وزيت للشعر وأمشاط وبنس شعر ملونة وإبر وخيوط وغيرها.

قالوا إنّ البعض قد شاروا عليه أن يبني هنا، حتى ولو غرفة واحدة في مكانه هذا ويستقر هنا. هكذا في فترة قصيرة آل له بيت ودكان. مرت السنين وهو مرتكز على شجرة الكافور العملاقة تبلى عيدان الغاب والبوص والجريد التي على سقفه وتجدد دائماً، ظلَّ هكذا وكذلك ظلت بيوت كفر سنارة هكذا لا تزحف خطوة إلى الأمام أو ترجع خطوة إلى الخلف، ولم يتغير مكانه منذ إنشائه، كان صاحبه "محمد الأمين" رجلاً ضخماً تتدلى معدته الضخمة إلى الأسفل. اختلف العجائز في البلدة، مَن قال أنّه فتح دكانه أولاً وبعدها بعامٍ واحدٍ بنى غرفة كبيرة ملصقة بالدكان، ومَن قال عامين، ومَن نفى كلّ ذلك وقال أنّه بنى الاثنين معاً. كان يأتيه صبي من بلدته التي لا يعرفها أحد، من حين لآخر يبقى الصبي شهراً أو ربما أكثر ثم يعود أدراجه. تعدد الصبية الذين أتوا ثم عادوا. هو نفسه يذهب إلى بلدته مرة كلّ ستة أشهر ربما كلّ عام في أوقات غير أوقات جني المحاصيل، يغلق الدكان وأهالي البلدة يأتون أمام الدكان يتجمعون يجلسون ويتربعون فوق كومة السباخ التي تواجه الدكان. وفي الأحيان التي يغلق فيها، يخيّم الكدر والحزن على المكان، فإن لم يكن "محمد الأمين" فالبلدة لا تكون، هكذا خُيّل للأهالي.

الجميع في حقولهم خلال أشهر الصيف، لا يبقى في البلدة سوى العجائز والأطفال وبعض النسوة، الشيوخ يأتون في الصباح إلى الدكان ويجلسون القرفصاء فوق الدكك الخشبية الموجودة فيه حتى المساء. إلى أن يأتي الجميع من حقولهم، وفي الضحى وقُبيل الظهر يخيّمُ الصمت على البلدة لا صوت ولا صدى من حين لآخر يسمع مواء قطة أو نباح كلب أو نهيق حمار ثم يعود الصمت ويشمل كلّ البلدة، لم يقم أحد برفع رأسه قط لينظر إلى الخارج فالعيون محدبة من أشعة الشمس الساطعة القائظة، الحرُّ يلفُ المكان، حتى القطط والكلاب لا تُرى إذا ما بدت؛ فتراها ممددة في ظلّ كوخٍ أو جدار حائطٍ وقد تدلت ألسنتها. في هذه الأثناء بالضبط تبدو امرأة تأتي خلف آخر حافيةً مسرعةً فوق رأسها كمية من الحبوب تعرف مكيالها تتجه مسرعةً نحو الدكان ووجهها وعينيها غارقتان في العرق تتجه مباشرة نحو الأشولة المتراصة في الزاوية، وتفرغ ما فوق رأسها، ثم تنفض الغبار عنها بكلتيّ يديها. يسألها "محمد الأمين" "ما المقدار؟" تجيبه المرأة " كيلة" يعود فيسألها "ماذا تريدين؟ "تجيبه " سآخذ فيما بعد"، تنسحب المرأة ذاهبة و"محمد الأمين" يقوم يخط بعض الخطوط في دفترٍ أمامه. لم يكن في البلدة أو البلاد المجاورة امرأة لا تحضر الحبوب أو الدقيق أو البيض أو البقول إلى دكان "محمد الأمين" من

خلف ظهر زوجها، لتأخذ في مقابله كلّ ما يلزمها من أمشاط وفلايات وخرز وعقود وزيت شعر وروائح وعسل أسود وفول سوداني وبلح وطحينية، أو تشتري اللبَّ أو البلي البلوري لأولادهم أو كرات البلاستيك. هنا التعامل مع "محمد الأمين" والنسوة ليس بالنقود أو أي عملة بل بالمقايضة بالحبوب أو ما يأتين به. فنسوة البلدة لا يعرفن النقود ولا يرينها ولا تلزمهن. والذين يجلسون في الدكان السر لديهم في بئر عميقة إلا "إبراهيم" فهو يرى في "محمد الأمين" مصاص دماء يأخذ خبزهم في مقابل أشياء تافهة، لذلك أفشى سرهم وحذر أزواجهن وراح يشرح للجميع الفرق بين ما يحصل عليه وما يعطيه. فبدا هو الوحيد الغير مرحب به في الدكان غير أن جرأته وقوة بأسه الشديدة كانت دائماً تُخرس الألسنة. يرق قلبه حين يرى أهل بلدته وخاصة في شهر مارس حيث لا يبقى في البيت خبز أو دقيق، وأفواه الصغار تصرخ، لحظتها تتحول البلدة إلى خلية نحل من النسوة، وتنصب اللعنات فوق رأس "محمد الأمين"، يدافعُ عنه أتباعُه يقولون "أنه لم يفتح هذا الدكان هباءً، فهل يمكن أن يرد قاصده، أي عقل هذا؟!".

سبٌّ.. قذفٌ.. وتوسلٌ. يستمر هذا الجو حتى انتهاء الحصاد ثم "تعود ريمة لعادتها القديمة" تتوالى عليه كيلات القمح والذرة كالسابق.

كلّ ما كان يشغله هو أن تؤثر عليهم كلمات "إبراهيم" ويفكر ماذا يفعل، فهو يعرف كلّ همسة كلّ نفس من خلال شبكته العنكبوتية التي تمتد من مكانه إلى بيوت البلدة كافة، فكلّ ما يدور في البلدة يصله، لماذا تشاجر "فتحي" مع زوجته، لماذا يتردد فلان على البلدة وآخر على القرى المجاورة. أدق التفاصيل وكلّ الأسرار وحتى المحرّمة منها تصله وهو في مكانه يعلمها. يعرف إن هذا من متطلبات المهنة.

حتى جاءت هذه الليلة التي لم تكن كسابقتها لا من حيث الجمع وهذا العدد الغير مألوف فحسب بل من ناحية كم المراهنات والذي شارك فيها "محمد الأمين" وظلَّ منتشياً منذ البداية وحتى النهاية، كانت هذه الليلة في أواخر الشتاء بالتحديد في السبعة الأيام الحسوم في آخر شهر أمشير و بداية شهر برمهات، ليلتها اجتاحت الرياح بلدتنا بكميات من الغبار والرمال وكرات الشوك، وعقب صلاة العشاء حضر "إبراهيم "كانوا يلعبون الكوتشينة لم يمرّ وقتٌ كثيرٌ حتى بدأ "عواف السالم" الرهان الأول بين كلّ من "إبراهيم وصلاح منصور"، ثلاثة علب ملبن كبيرة من يأكلها أولاً يكسب ويدفع الثاني ثمنها. فاز بها "إبراهيم" وتوالت بعد ذلك الرهانات خمسة أكياس حلاوة عسلية زجاجة شربات خام، وغيرها إلى أن جاء الرهان الأكبر والأخير الذي

جعل من الصمت سيد للمكان حين وقف "عواف السالم" ليعلن الشروط وهي أن يخرجَ المتسابقان في وقتٍ واحدٍ، يحمل كلّ منهما وتد علق به شريط قماش من لون مختلف عن الآخر، أحدهما يذهب إلى الناحية الشمالية للمقابر ويغرس الوتد، بينما يذهب الآخر حيث الجهة الجنوبية ويغرس الوتد، ويعودان إلى هنا، من يصل الأول يكون الفائز، سننتظر وصول الاثنين، ثم نقسم الحضور جميعاً إلى مجموعتين ما عدا "محمد الأمين" يبقى مع المتسابقين، كلّ مجموعة تذهب إلى جهة للتأكد من غرس الوتد.

الجائزة سيأخذ من كل شخص من الحاضرين جنيهاً واحداً باستثناء المتسابقين، وسوف يكمل "محمد الأمين" المبلغ المتبقي حتى يصل إلى خمسة وعشرين جنيهاً.

المبلغ وقتها كبير جداً يفوق ما يأخذه عامل صخرة يحفر في قناة السويس لمدة عام كامل، لم يتكلم أحد رغم ضخامة المبلغ، وحاجتهم الكبير واستعدادهم لخوض هذه المغامرة وليكن ما يكون، والأغرب الذين تحدثوا عن هذه الواقعة ولم يحضروا هذه الليلة، قالوا "من أين حصل "عواف السالم" على هذا الجنيه وهو لا يملك في بيته قرشاً واحداً ولم يمسك في يده هذا المبلغ من قبل"، قالوا: "ولماذا لم يتسابق فلان وفلان فهما أحوج ما يكون لهذا

المبلغ الضخم"، وقالوا: "لماذا ألقى صلاح منصور الوتد ولم يذهب، هل كان يعرف الحكاية " قالوا: " كان هناك أحد قطاع الطرق ينتظره فإذا ما نجح "إبراهيم" في غرس الوتد وعاد، استقبله هو برصاصته".

أسئلةٌ كثيرةٌ دارت وألهبت عقول الجميع مدةً طويلةً.

ولنعد إلى "إبراهيم" الذي نظر إليه كل القابعين في الدكان، يستحثونه بعيونهم. يعلمون مدى اندفاعه وتهوره، وكذلك جرأته وعدم تحكيم عقله، لم يخِب ظنهم أبداً. أشار على الفور موافق وسوف أغرسه في الناحية الجنوبية، وهي الأصعب تشجع "صلاح منصور" الذي خسر رهانه في أول الليلة على قبول التحدي، حيث أعلن موافقته على غرس الوتد من الجهة الشمالية، وجاءت اللحظة الحاسمة قام "عواف" فسلّمَ "إبراهيم" الوتد الذي ربط به شريط أسود بينما استلم "صلاح" الوتد ذو الشريط الأبيض. الغريب في الأمر أن الوتدين كانا مجهزين مسبقاً، فتح باب الدكان وخرج المتسابقان مسرعين كلاً إلى جهته، سلك "إبراهيم" طريقه ناحية المقابر. الطريق والوعر والذي به انحدارٌ شديدٌ ومدقٌ ضيقٌ ملتوٍ يلف المقابر كحزامٍ أسفله يقع المنحدر.

الرياح شديدة والعاصفة الترابية يتعذر معها الرؤية حتى وإن كانت العينان مفتوحتين عن آخرهما. ما بالك بعينين شبه مغلقتين من أثر اندفاع التراب

والغبار من هذه العاصفة الترابية الشديدة. عواء الذئاب يأتي من قريب، ربما جاءت تحتمي ببيوت البلدة من هذا الموت القادم لا محالة. تسلّق إبراهيم في حذر سلسلة المرتفعات حتى وصل إلى الطريق الضيق الذي يفصل المقابر عن المنحدر سار مندفعاً بقوة ساقيه حتى لا تقذفه الرياح أسفل المنحدر، يسير عكس الرياح الآتية من الغرب ويتحمل كمية الرمال المقذوفة في وجهه بفضل سرعة الرياح، لم يعبأ بالأشواك المنغرسة في قدميه ولا بالعاصفة القوية التي تدفعه إلى الخلف، يضع يده أمام وجهه يحمي عينيه من كرات الشوك السابحة في الهواء، يتحسس الوتد في يده ينظر إليه يقربه من عينه، الظلام دامس، يندفع بقوة أكبر وبإصرار أكثر لبلوغ هدفه والوصول إلى النقطة الجنوبية التي تتساوى فيها الأرض مع المقابر ويختفي المنحدر، يندفع مقوس الظهر يقاوم الريح ويخترقها، عبر عدة مقابر ملاصقة للطريق حتى وصل إلى النقطة المطلوبة. جلس، بحث بيديه القويتين في هذا الظلام الحالك المحيط بالمكان حتى عثر على حجرٍ كبيرٍ، شمّر عن ساعديه، غرس بداية الوتد ثم راح يدق على رأسه بقوة، والوتد في البداية يمتنع عن اختراق أرض المقابر كأنه يعانده حتى يُفشل مهمته، ولكن ضرباته القوية والمصوبة بدقة جعلته يدرك أنه لا مفر له من اختراقه لهذه الأرض حتى نهايته وليس

له شأن بمن يرقد هنا تحته، واصل الدق وصوت لهاثه بدا عالياً حتى فرغ منه ثم أعقبه بدقةٍ ساحقةٍ جعلت رأس الوتد تتساوى مع الأرض.

مسح عرقه ونفض التراب عن ملابسه ووجهه. همَّ بالانصراف ولكن شيئاً خارقاً جعله يتوقف فجأة، على بُعد خطوة واحدة من الوتد المنغرس خلفه، شدَّ قامته المديدة استعاذ بالله من الأرواح الشريرة ومن الشيطان الرجيم. حاول مرة... مرتان... ثلاثة. ثم بعد ذلك مرات عديدة ولكنّه لم يستطِع السير، قوة جبارة كأنّها كلاّبات فولاذية تمسك جلبابه من الخلف، صوت الريح مازال عاصفاً والظلام يغلف المكان. خرج صوته أقوى من صوت الريح اتركني أيّها الجبان ولتظهر لي وجهاً لوجه، سمع ضحكاتهم الساخرة تجوب المكان، صرخَ سمع صراخهم أيضاً يطن في أذنيه، وفي غمرة رعبه شاهدهم من كلّ صوب يأتون نحوه في أكفانهم البيضاء. حاول الهروب بسرعةٍ ولكنهم جذبوه بقوة حتى وقع للخلف، قام مفزوعاً يهشهم بذراعيه ويبعدهم عنه محاولاً استخلاص جلبابه من أيديهم ولكنه مهما حاول لم يستطع. ينظر حوله وخلفه يطيح بيده للخلف لعلّه يمسك من خلفه أو يطيح به، ولكنّها لم تصطدم بشيء سوى الفراغ، ظلَّ مراتٍ كثيرةٍ يقاوم في استماته يقع على

الأرض، ثم ينهض من جديد، ثم يقع ثم ينهض، حتى خارت قواه فوقع هذه المرة للأمام على وجهه ولم يقم ثانية.

أذن الفجر، نهضت "نور" تتفقده في الدار لم تجده حسبته مع أحد أصدقائه يروي أرضه، لم تنم ظلت والأفكار تنهش عقلها فتطردها مرة وتسبح معها مرة أخرى حتى بزغت الشمس ولم يعد "إبراهيم".

الأبخرة الرقيقة تعلو سطح الأرض، رويداً رويداً تتجه نحو السماء، و"نور" تدق باب "محمد الأمين" الملاصق تماماً للدكان. صدى هذه الطرقات تصم الآذان.

وتفتح الأبواب ويتجمهر الأهالي يخرج "محمد الأمين" يسأل "ماذا حدث يا ست نور "؟ وهو ومازال يرتدي جلبابه، تجيبه على الفور "إبراهيم لم يعد" يسألها: " لم يعد من أين؟ " ترد نور: "لا أعرف، هو لم ينم في البيت ".

تذكروا ما حدث بالأمس، هرولوا جميعاً على الفور شاهدوا الوتد ذو الشريط الأبيض، شاطه "محمد الأمين" بقدمه، أمسكه أحد السائرين خلفه وأشاع موضوع الرهان وأن هذا الشريط يخص صلاح منصور والاحتمال الأكبر أنَّ "إبراهيم" مازال هناك في المقابر من الجهة الجنوبية، شاع الخبر في كلّ البلدة فبدأ الزحف إلى هناك. بدا شريطٌ طويلٌ من الناس يسيرون خلف بعضهم

البعض، يسدون المدق الضيق الذي سلكه "إبراهيم" بالأمس، تعيقُ تقدمهم كرات الشوك، يلقون بها إلى أسفل، "نور" تهرول أمامهم تخبُّ في عباءتها الطويلة حتى وصلوا إلى المكان. كان ملقىً على وجهه، ممدداً على الأرض كعملاقٍ، بينما الوتد بين ساقيه وقد اخترق جلبابه من الخلف ومنعه من الحركة، عيناه مفتوحتان بها آثار الرعب بينما تيبس جسده، ألقت بنفسها فوقه راحت تهزه غير مصدقة تضع رأسه فوق صدرها تناديه، خرجت صرختها تشق الفضاء حولها. لم تتركه حتى بعد دفنه جلست على قبره تنتحب، رغم محاولات أهلها المستمرة. وكذلك شيوخ البلدة والبلاد الأخرى الذين أتوا لإقناعها بالعودة لكنها لم تتركه. أخذوها بالقوة عادت إليه من جديد. حبسوها امتنعت عن تناول أي شيء، حدثوه بالحجة قالت لهم: كيف أترك من وضع حياته أمامكم من أجلي! هل نسيتم ماذا فعلتم به؟ وماذا أعددتم له من مكائد حتى تفشلوا زواجنا؟! هل نسيتم قطاع الطرق والمأجورين الذين اتفقتم معهم من أجل قتله؟ أُطلقوا النار عليه مرات وأصيب مرات، كان في كلّ مرة قريباً من الموت، لم يتهم أحدكم من أجلي، كان يقول "كيف أكون سبباً في حزنها إذا دخل السجن أخوها أو أبوها أو أحد من أقاربها". فعلتم به الكثير والكثير، الآن دعوني وشأني.

لما يأس الجميع خرجت البلدة كلها، بنوا لها كوخاً كبيراً حول المكان التي تجلس فيه ثم صنعوا له سقفاً من الغاب والبوص، وصنعوا له باباً وشباكاً وهي جالسة فوق قبره وهم حولها يباشرون العمل لم تنظر إليهم ولم تعرفهم. إنما راحت بعقلها وجسدها وكل حواسها إلى عالم آخر ومكان آخر تسابق الزمن للوصول إليه، لم تأكل سوى ما يطعمونه لها بالقوة وكذلك الماء كانوا يفتحون فمها حتى يصل القليل جوفها قبل أن يفشلوا في فتحه مرة أخرى، امتنعت عن الكلام وعن السمع فلم تعد تدرك الداخل أو الخارج حتى لو افتعلوا بجوارها ألف مشاجرة، حتى أمها لم يرمش لها جفنها ولم تعرفها، تناوبوا على حراستها، من كل بيت رجل وزوجته يوماً كاملاً. جاءتها نساء البلدة والبلاد الأخرى بكينَ وانتحبنَ بجوارها وهي مكانها لا تعرف أحد. ولم تذكر أحداهن أنّها نامت، ولم يعرفن إن كانت نامت وهي جالسة أما أنّها لم تنم.

لم يمضِ على موت "إبراهيم" عشرون يوماً حتى شاهد مَن في الحقول قبل البلدة النار، وقد اشتعلت في شجرة الكافور العملاقة بعد أن أتت على الدكان والبيت و"محمد الأمين" يخرج من بيته وقد اشتعلت النار في كلّ جسده، يصرخ ويستغيث بالناس، وهو يتقلب في الو سعاية بجوار شجرة الكافور الكبيرة التي انتقلت النار إلى فروعها العليا، ورائحة جسده المشوي تزكم الأنوف، ظلَّ

هكذا يتقلب ويصرخ وأعضاءٌ من جسده ولحمه تتساقط على الأرض. وبعض الأهالي الذين صحوا من نومهم على صراخه يلقون فوق جسده المتفحم التراب والبطاطين وهو يستغيث ويتقلب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وعيناه تنظران صوب الدكان.

كان الصبي الذي جاء ومكث عنده مدة شهرين أو يزيد غادر منذ أيام.

أما هو فكان سوف يلحق به بعد انتهاء فترة محصول القمح.

حتى يومنا هذا، لم يعرف أحد بشكل قاطع من الذي أشعل النار في البيت والدكان أو كيف، أو لماذا لم يخرج "محمد الأمين" قبل أن تصله النار وتشتعل بكل جسده، أو من أين جاء، وهل كان بالبيت منذ الليل، أو أنه جاء قبل بزوغ الشمس.

لا أحد يعرف، كل الذي قالوه أنّهم شاهدوا علامات الارتياح والسعادة على وجه "نور" التي ظلت هكذا أسبوعاً بعد الحريق لم تُحدث أحداً بل حدثتهم بلغة الإشارة، وظلّت تكررها مرات حتى فهموا، وحدثوها بإشارتها " لما أموت أدفن هنا مع "إبراهيم".

وبالفعل ماتت ودفنت معه قبل أن يمر شهر على موتها. انتشرت حكايتها بين القرى والنجوع والبلاد البعيدة علم بها شعراء الربابة وتغنوا بها في الموالد

والأفراح والمناسبات وزادوا عليها وساعدوا في انتشارها، حتى خرجت لتعمّ كلّ الأماكن.

توافد بعد ذلك الزهاد والشعراء والمداحون والعشاق، وأصحاب النذور جاءوا من كلّ صوب ومن كلّ مكان. بعدهم جاء الغجر شدّوا خيامهم بالقرب من الكوخ ولما زاد عددهم بشكلٍ كبيرٍ انتقلوا هناك شدّوا خيامهم فوق سفح التلة.

التي تغير أيضاً إلى تلة الغجر ويوماً فيوم تغير اسم بلدتنا من "كفر سنارة" إلى "كفر إبراهيم"، في العام التالي أو ربما الذي تلاه أقيم مولد "سيدي إبراهيم العاشق" والذي مازال قائماً حتى اليوم. يدخر الأهالي أضحية العيد الكبير لتذبح في المولد حيث يتجمهر الناس من كلّ الأعمار بنات وشباباً ورجالاً وأطفالاً وعجائز وعرافين ومن كلّ صوب، حيث فرق الإنشاد والمراجيح وراقصات من الغجر وبائعي الحلوى واللب والفول والطرابيش والأساور ولعبة النيشان ولعبة القطار والثلاثة ورقات وغيرها. منذ هذا الزمن وإلى الآن لم يتغير شيء المولد ينتظره الناس كلّ عام ويأتون من كل صوب ويقام في موعده.

هذه هي حكاية "إبراهيم ونور" والمقام.

- آهٍ يا فايز ما أغرب ما سمعته منك فهي ملحمة خالدة من العشق والإصرار والتضحية والألم والحزن والموت، جعلتني لا أستطيع حبس دموعي هذه كما ترى.

- ما أجملك شامية فانعكاس اللون الأرجواني السابح في هذه الخضرة الصافية يجعل منها لوحة بديعة.

- تقصد نور.

- لا... أقصدُ عينيك شامية.

علا وجهها حمرة الخجل، صمتت لحظات ثم قالت:

- مسافر غداً؟

- إن شاء الله.

- ألا يمكن البقاء أسبوع آخر.

- هذا صعب شامية، حدثني أبي بالأمس وبدا واضحاً استغرابه من طول مدة بقائي في البلدة، ولما قلت له أن المظاهرات مازالت مشتعلة، سخر من كلامي وقال أنّ المظاهرات انتهت منذ اليوم الثالث الذي ألقى فيه "السادات" خطابه وألغى قرار الحكومة برفع الدعم ولا أعرف من الذي نقل له هذه الأخبار.

- ومتى سيكون سفرك؟

- بعد صلاة الفجر.

- سوف أراك.

- إن شاء الله، الليلة سنراجع بعض الدروس.

تنهدت "شامية" وهي تطوف على وجهه قائلة في نفسها: سأملأ روحي منك حتى وإن لم يعد لروحي مكان.

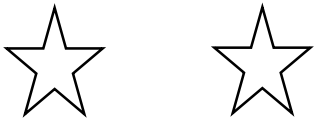

تلةُ الغجرِ
الفصل السابع

أعرفُ منذ اللحظة الأولى التي رآني فيها ليلاً بصحبة "تَباهي" والمرأة البدينة كما يحب أن يناديها، ليلة أن استغثت به لنقل عمه المتسمم إلى المستشفى. شغفه بي واهتمامه المتزايد الذي تعدى حدود الحبّ والعشق، وأعرف أنني السبب الأول والأخير وراء بقائه في البلدة كل هذه المدة. وأعلم علم اليقين أنني أعشقه أيضاً عشقاً يفوق عشقه، وأنّ ما حدث معه حدث معي منذ رأيته وفي نفس اللحظة وأن ما تنبأت به تلك العرافة قد حدث فعلاً وبأدق تفاصيله. وأن ما عزم عليه من عدم الرجوع هنا حتى يقضي الله أمراً، يجعلني ميتة بالحياة مقتولة ومذبوحة أنزف من دمي كلّ لحظة، طوال مدة الفراق الطويل الذي لا يُحتمل. والذي لا أعرف مدتهُ وكيف ستكون نهايته، حتماً ستكون نهايته مؤلمة ومريرة، أتمنى أن يكون موتي أنا، سيكون هذا أفضل الحلول، سيتجاوزان الأزمة بمرور الوقت، وسوف أكون بعدها نسياً منسياً، سيعيش كلّ منهما حياته. لأنني أجد في الرحيل وعدم العودة حلاً مؤقتاً. آه تذكرت شيئاً، ربما يكون في الرحيل وعدم العودة الحل الأنسب، ربما هو أنسب الحلول، قد ينساني ويفتر ما بقلبه من حبٍّ نحوي، لعلّه يحبُّ فتاة أخرى. تكون معه في الجامعة. ربما يتحرك قلبه ناحية "نجوان السعيد" في

كلّ الأحوال لا يمكننا أن نفقد رجلاً مثل "غالب" في رجولته وشهامته وكرمه وإنسانيته التي لا يوجد مثيل له

هو صارحني بحبه وبنبوءة العرافة، أما أنا كتمت مشاعري في قلبي، هو رجل يستطيع أن يُعبر عن مشاعره أما نحن النساء، لا وألف لا فالوضع مختلف، تقوم الدنيا ولا تقعد وتخرج التصريحات التي تحمل بين طياتها الخيانة وأشياء أخرى قد تصل إلى حد إنهاء حياتي، وأقسم بالله العظيم أني أحبُّ زوجي وأقدره وأني لم أسعَ إلى حُبِّ "فايز" ولكن هو قدر الله لنا، وإني ما حييت سوف أحافظ على شرفه، أما ما بقلبي ليقضي الله أمراً كان مفعولاً

أعشق فيه كلّ شيء، حديثه حين يتكلم، تفقد حواسي وظائفها وتحتشد معي لسماعه. لحظتها أغيب عن الدنيا، أتوحد معه، في لحظةٍ تلاشى من ذاكرتي كل الماضي البغيض، الفقر والعوذة وعمل أمي في الحقول وحلمي الذي طالما حلمت به، خروج سالم الصغير للعمل في غبش الفجر، زوجة أخي بوجهها القميء، كلّ شيء تلاشي ماعدا "فايز" وصوته الذي أعشقه وحكاياته عن القاهرة وأحيائها المعادي والزمالك وجاردن سيتي وكورنيش النيل والحدائق العامة والدقي والجامعة وبين السرايات. يقول "الفرق شاسع ولا توجد أدنى مقارنة بين عمارات القاهرة وسكانها وبين قباب وبيوت كفر إبراهيم

الترابية المعروشة بفلق النخيل وأعواد البوص". ولكن كيف لي أن أعرف الفارق الرهيب الذي تحدث عنه "فايز" وأنا لم أرَ المدينة من قبل ولم أرَ سوى هذه البيوت الطينية القصيرة وأزقتها الضيقة والفقر الذي يطاردنا من كلّ ناحية يُدخلنا الشقوق كفئران جائعة. الحياة هنا للقوي الذي يأخذ ويحافظ على ما أخذه، أما الضعيف فلا حول له ولا قوة ما يحصل عليه لا يسد رمقه، يلعقُ الأعتاب يقف عند كل باب، يغشي وجهه الخجل لا قامة له، الفقير يولد محنياً ينظر إلى أسفل ويمد يده. فكيف لي معرفة الفرق يا "فايز" وأنا لم أزر أي مدينة من قبل، حتى المرة الوحيدة التي رأيت فيها المدينة من خلال سيارة نقل كانت تسابق الزمن من أجل الوصول إلى المستشفى العام، وحين خرجنا منه ليلاً جئت لنا بسيارة يا "فايز" طمس السواد زجاجها، أخذتنا من داخل المستشفى إلى كفر إبراهيم

في كفر رمان عشت طفولتي وجزءاً من شبابي بين الوادي والجبل العالي، الوادي حيث بيوت الفلاحين الفقيرة، بيوتٌ من طين تشبه المقابر، نخشى أن تنهار سقوفها ليلاً على رؤوسنا، نشعر بأية حركة حتى وإن كانت قطة أو كلب يسقط على أثرها التراب والهباب، تعيش معنا الحيوانات والطيور تضع فضلاتها في أطباق طعامنا وفوق وجوهنا أيضاً ونحن نائمون على المصاطب

الطينية التي نتخذها كأسّرةٍ. حين يؤذن المغرب تختفي كل مظاهر الحياة ويلف الظلام كفر رمان وتخرج الشياطين من جحورها

حدثني عن نجوان السعيد ولا أعرف كمية الغيرة التي اجتاحتني لحظتها، وعن خجله وخوفه الملازمان له منذ طفولته وعن إصراره لتحطيم كل مخاوفه.. اعتماده على نفسه يجعل منه مثلاً أعلى لي، فكيف يحافظ على الدراسة والعمل في آنٍ واحد ويتفوق ويعد نفسه للتدريس في الكلية بعد تخرجه، ذلك يحفزني على تحمل بعده أعراض الحمل والأعمال المنزلية والمذاكرة.. تعلم حرفة التجليد للمصاحف الشريفة والروايات وكتب التراث والشعر وكتب السياسة. وكذلك الكتابة على أغلفة الكتب بماء الذهب والتي زادت من دخله بشكل كبير، وجعلته لا ينتظر أيّة أموالٍ من والده أو عمه.. في الإجازة الصيفية الماضية ذهب إلى فرنسا، ركب الطائرة ولم يخف من شيء عمل هناك، ولما عاد فتح ورشة صغيرة لخدمات ما بعد الطباعة بالقرب من الجامعة استقدم صبية قام بتعليمهم كل فنون ومهارات التجليد.. سألته: هل هو التجليد العادي للكراسات المدرسية؟

ضحك وهو يقول: "تجليد الكراسات يقوم به أي تلميذ في المرحلة الابتدائية، أما التجليد الذي تعلمته في ورشة الحاج نبيل يقولون عنها خدمات ما بعد

الطباعة أي بعد طباعة الكتاب يستخدم مع الغلاف البطانة وكعب الكتاب والخيط والمقص اليدوي الكبير والغراء والتشميع ثم الكبس وكل مرحلة قائمة بذاتها فمثلاً إذا جار الصنايعي في القص اختفى هامش الكتاب وبالتالي الكلمة الأولى من كل صف، وإذا لم تكن الخياطة في مكانها المخصص وعلى خطٍ واحدٍ مستقيمٍ حدث تعريج في الصفحات وهكذا "

ولعه الشديد بالقراءة وخاصة الروايات جعله كثير التردد على "الفجالة" ما أن يخرج من الجامعة حتى يركب أتوبيس خط (40) المتجه من الجيزة إلى ميدان رمسيس يصلي العصر في مسجد الفتح ثم يمر بين مكتبات "الفجالة" لشراء بعض الكتب أو استبدالها بكتب أخرى معه، فترة طويلة وهو يتنقل بين المكتبات حتى نمت صداقة جديدة بينه وبين "سعد العارف" صاحب مكتبة الدرر المكنونة حيث تميز "سعد" عن غيره بأنّه مثقف يعرف قيمة الكتاب وليس تاجر مثل بقية أصحاب المكتبات الأخرى، إلى جانب أن أسعاره أقل منهم، غير أنّه يوفر الوقت حيث يعرف أماكنَ كتبه وله آراء مفيدة عن أهم الكتب ويمكنك تسجيل الكتب التي ترغب في قراءتها الأسبوع المقبل فيتم تجهيزها باسم صاحبها مدون عليها السعر إلى جانب إحساسه بالآخرين، هو الذي اقترح على "فايز" تعلم مهنة التجليد لما عرف

أنه طالب ولاحظ كمية الكتب التي يشتريها، لم يكتفِ بالاقتراح بل طلب من الحاج "نبيل" أن يتعلم "فايز" في ورشة التجليد عنده، وبعد أن تعلم وأتقن المهنة اقترح على الحاج "نبيل" أن يعطيه بعض الأدوات والخامات وشغل الأسبوع لينجزه في سكنه ثم يسلمه ويعود بالشغل الجديد توفيراً للوقت واستغلاله في المذاكرة.. عرف "سعد العارف" من خلال جلساته مع الشيخ "محمد حسين" إمام وخطيب مسجد الفتح بميدان رمسيس عقب صلاة المغرب فهو يعشق صوته، ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يذهب فيه إلى "الفجالة" ليصلي المغرب والعشاء خلفة والاستمتاع بهذا الصوت الملائكي إلى جانب جلسة ما بعد صلاة المغرب.

في السكن علم "سيد كمال وهاني صلاح" فن التجليد "سيد" كان يأخذ أجره، يساعد على ما يرسله له والده، في الأكل وشراء مذكرات ودفع الإيجار، أما هاني وضع العمل مقابل قراءة الكتب التي يحددها مسبقاً

في اليوم التالي لشفاء عمه أهداني روايتين، رعشة سرت في جسدي عندما استقرت يدي الممدودة لأخذ الكتب بين يديه وهو يطوف بعينيه على وجهي وابتسامة تطفو على شفتيه وصوته الهادئ ينفذ إلى قلبي مباشرة حين قال" لا شك أن في هذه الكتب لذة مفيدة وليس مضيعة للوقت وقتل الفراغ، لأن

هذه الكتب ماهي إلا عقول وخبرات السابقين حفظت فيه لنا وللأجيال القادمة ".

لم أقرأ من قبل أي رواية وما أعرفه سابقاً عن القصص ماكنت أخذته في مقررات المدرسة. كنت أقتل بها الوقت، قبل أن يعيد إليّ روحي، حلمي القديم الذي مات بزواجي حلم التعليم ودخول الجامعة، تأثرت كثيراً وبكيت لموت "زينب" وكأني أعرفها منذ زمن بعيد وأنها حقيقة وليست البطلة في رواية "شجرة اللبلاب" وبكيت طويلاً لحياة "حسني" الصعبة لدرجة أفزعت "غالب" وقرأت بعد الغروب السقا مات وبدأت أتعرف من خلال الروايات على الكُتاب "محمد عبد الحليم عبد الله" و"إحسان عبد القدوس" و"يوسف السباعي" وأتناقش مع "فايز" في بعض المواقف مثل موقف "حسني" وسوء ظنه بحبيبته وبعده عنها الذي جعلها لا تتحمل الفراق فماتت، قال أن طفولة "حسني" الصعبة والمشهد الذي رأى فيه زوجة أبيه بين أحضان "محفوظ" إلى جانب قصص العم "غانم" مع النساء جعلت المرأة في نظره خائنة، أضيفي على ذلك هذا المجتمع الذكوري الذي لا يتعامل مع المرأة كإنسانة بل يريدها للمتعة فقط، المهم أن "حسني" قد شفي في آخر الرواية من مرضة النفسي بالزواج ".. أعجبني ما قاله عن المجتمع الذكوري وخاصة أن هذا

التعريف لم أسمعه من قبل، فعلاً ما قاله هي الحقيقة التي يتعامل بها الرجال هنا.

لحظتها منعت نفسي بالقوة من القيام إليه وتطويقه وتقبيله وليكن ما يكون.. قلت له وأنت هل تؤمن أن المرأة ليست متاعاً فقط وأن لها دور في هذه الحياة. قال: "نعم.. هي نصف المجتمع تتحمل أعباءً مثل الرجل فهي تؤدي دورها في تربية الأبناء والسهر عليهم وكذلك العمل بجوار الرجل في الأرض وكذلك تعمل في التدريس والطب و التمريض، وكل الوظائف جنباً إلى جنب بجوار الرجل فدورها لا يقل عن دور الرجل خرجت في ثورة 1919 إلى جوار الرجل تطالب بالإفراج عن "سعد زغلول "ورحيل الإنجليز. حتى في انتصارات أكتوبر كان لها دوراً عظيماً وفعالاً. ولن ننسى ما فعلته سيدة الغناء العربي، السيدة "أم كلثوم" من التبرع بكلّ حفلاتها لصالح المجهود الحربي " قلت له: كم أنت عظيم يا "فايز" قال: وهو يبتسم "وأنت رائعة يا شامية".. لحظتها سارعت بتغيير دفة الحديث، قلت له: هل تعرف أن هناك تشابه كبير وخاصة في طفولتك بينك وبين "حسني" بطل رواية شجرة اللبلاب. ابتسم وقال: "أنّ هناك تشابه كبير في طفولة معظم أطفال الريف"

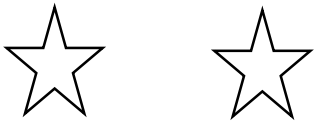

تلةُ الغجرِ
الفصل الثامن

أسعلُ بشدةٍ وكأنّ روحي ستخرج من بدني الآن، أختنق... أنفاسي تخرج متلاحقة تبحث عن حفنة هواء، الدخان يملأ الغرفة، فتحت الشباك عن آخره، أفرك عيني بشدة أعرف من فعل ذلك هي "عرب" ومكائدها التي لا تنتهي وعليك أن تُصرف نفسك دون أن تشتكي، لكنها فعلت خيراً بوضعها راقية النار أمام باب غرفتي، هي لا تعرف أنّني كنت في أشد الحاجة إلى الصحو في هذا الوقت، لعلّ الساعة الآن الثامنة مساءً، أعرف أن راقية النار هذه ليست الأولى ربما الثالثة أو الرابعة، أعرف ذلك من كمية الدخان الرهيبة المحبوسة في الغرفة، لا أثر للأوكسجين. رأسي خارج شباك الغرفة، يبحث عن شهيق يملأ الرئتين قبل الاختناق، لعلّ الزفير الذي خرج كان الأخير، إن لم أصحو في هذا الوقت، الباب مغلق ولكن الدخان يمر عبر الثقوب، ضغطتُ زر المصباح بجواري، كميات كثيرة من الدخان تعبر الفراغ تنطلق بكثافة عبر الشباك تعدو إلى الشارع كغيمة امتدت حتى بلغت البحيرة. نظرت في الساعة إنها السابعة وخمسة دقائق، العشاء أذن منذ نصف ساعة أو يزيد، نثرت على وجهي بعض الماء غسلت عيني وشربت القليل، وضعت قدميّ في الحذاء وأغلقت الباب خلفي، هبطتُ السلم دون أن أرى "عرب" أو أبي، رفعت ذراعي إلى أعلى ثم ملتُ بجزعي إلى أسفل عدة مرات

طارداً الهواء المحبوس من رئتي ثم أخذت شهيقاً وفتحت كل مسام جسمي لدخول هواء البحيرة النقي، طيورٌ سوداء تعبر الأفق نحو البحير، صوت الريح يعلو فوق حارات وأزقة البلدة الخالية، يزوم فوق أسطح البيوت القصيرة المتعبة تحت حملها الثقيل من حطب القطن وأعواد الذرة الجافة.

قبل نومي تجولت في البلدة كسائحٍ، همت خلالها بأماكن الصبا ومراتع الطفولة أيام اللعب لا تُنسى، ظلَّ طيفٌ من الذكريات الجميلة تعبر خيالي وتتراءى أمامي وأنا أتجول هنا وهناك وقت هبوب رياح العصاري

رأسي يكاد ينفجر من كثرة التفكير في هذا القرار الذي أخذته سابقاً بالابتعاد وعدم الرجوع إلى البلدة، في السابق كان الأمر لا يعني لي أي شيء أستطيع أن أمضي سنواتٍ بعيداً، الآن هل أستطيع الغياب؟ لا أستطيع وماذا ستفعل إذاً ؟! هل ستعود وتحقق نبوءة العرافة، لا.. الابتعاد هو أفضل الحلول، لا.. لا لن أعود وليفعل الله ما يريد

أشعر برعبٍ حقيقي وأنا أستند لبوابة الحديقة الخارجية، أسمع صوت "رعد" يجلجل في الفضاء، يزداد نباحه ويعدو ناحية البوابة المغلقة، يأتيني صوتها وهي تنهره بشدة

- رعد.. رعد

يخفت صوته يأتي مواءه من بعيدٍ، لعلّه يتمسح بها الآن، أسمع وقع خطواتها تفتح البوابة، تضع يدها بين يدي وهي تبتسم وتقول:

- لا تخف "فهد" ذهب مع عمك إلى الغيط.

أغلقت البوابة خلفي، كان "رعد" يقف هناك تحت سقيفة العنب ينظر لي ويصدر زئيراً خافتاً كأنه يستعد للانقضاض.

صعدت أمامي درجات السلم، ثم مرقنا من الباب المفتوح نحو الصالة، وقفت تحت إطارٍ ضخمٍ لصورة فارسٍ، يمتطي حصانه ويطعن بحربته أفعى ضخمة ذات رأسين، علمت منها سابقاً أن سيادة اللواء" سلامة "هو من أهداها ومعها "رعد وفهد" إلى عمي "غالب"، ظلت تتأمل الفارس. ترتدي عباءة من القطيفة لها لون البحيرة بها رسومات لفروع زهور مختلفة الألوان، تتفتح صوب شمس مطرزة بأشعة تمتد من فوق الصدر وتنتشر في كل الأماكن عبر جسدها المتناسق. فتبدو كحديقة فيحاء، تنظر نحوي وأنا أقف مذهولاً تستبد بي الأفكار والحيرة، أتساءل ما الذي أصنعه، من الواضح أنها جعلت الليلة لوداعي وليست للمذاكرة، ولكن ما الذي تعنيه من تأمل الفارس، لعلّها تسرح الآن في عالمي، تعرف أن هذه الليلة وهذه الساعة قد تكون الأخيرة، قبل أن يمر زمن طويل، الله وحده أعلم به وما قد سيكون، ليتني

تركت البلدة بعد حادثة "عامر" ولم أرَها ولم ترَني. ماذا جنيتُ من حبٍّ وعشقٍ مُحرّمٍ، لا يجني غير الخراب والدمار والموت. وكأنّ كلامها صدق وصوتها يلاحقني " مسكين يا ولدي كتب عليك العشق سوف تقتل أقرب الناس إليك مهما حاولت لن تغير قدرك".... وإذا كان مكتوباً ما ذنبي أنا؟! وماذا جنيتُ غير وجع القلب والحزن والألم، الهروب من دم وقتل وقدر مكتوب لا ذنب لي ولا يد لي ولا حيلة لي، خمسة عشر عاماً أو تزيد وهذه النبوءة الملعونة تلاحقني في نومي وفي صحوي وفي يقظتي، خمسة عشر عاماً أو تزيد، وصورة العرافة المحفورة في ذاكرتي وعقلي، تسطو على أحلامي وتسرق فرحتي. تخرج لي لسانها كلما اقتربت من حياتي الحزينة والشاقة أيّ فتاة، خمسة عشر عاماً أو تزيد وأنا أنتظر وأنتظر من الرجل الذي سأقتله وأي امرأة سوف أعشقها، ظللت أهرب وأهرب من أقاربي من نسائهم من بناتهم، حين تعجبني إحداهن أظل أبحث في وجوه أعمامي وأبناء أعمامي وهم كُثر، عمّن يريدها ويبدأ عقلي في سرد الأحداث المتوقعة. تخرج من داخلي العرافة وهي تقول: "ستقتل أقرب الناس إليك "... أردد في نفسي أنا قاتل، تقول: " أنت قاتل " فألوذُ بالفرار. حتى نعتوني بالمغرور المتكبر وهم لا يعرفون أني في أشد الحاجة إليهم إلى دفئهم الأسري الذي أفتقده طوال عمري، إلى كلمةٍ طيبةٍ تعينني على

الأيام، ويدٍ تحنو عليّ وتشعرني بأني لست بمفردي في هذه الحياة القاسية، وتعوض جزءاً ولو صغيراً من يتمي، عشت هذه الحياة حتى الآن أنا وعمي "غالب" ليس لي أحد غيره، غريبة هي هذه الدنيا بعد كل ما فعله لأجلي كان الأب والأم والصديق، يكون رد الجميل قتله، أتذكر الأيام الكثيرة التي كان ينساني فيها أبي وتصرخ أمعائي من الجوع أجده يطرق باب غرفتي يطعمني ويؤمن خوفي حتى أنام، ألمحُ دموعه التي يحاول منعها من الخروج، يغسل ملابسي مع ملابسه، يذاكر معي دروسي وواجباتي، حتى بعد دخولي الجامعة لم تنقطع زياراته وأمواله

لم أسعَ إلى هذا العشق، دائماً الهروب منه والبعد كلَّ البعد عنه حتى بداياته، بدت محرمة كأنّها قرآن منزّل من الله سبحانه وتعالى ولا تقربوا العشق.

لعلّها أدركت حزني الذي بدا واضحاً من صمتي وحيرتي وترددي وقلة حيلتي. فأسرعت نحوي واحتضنتني للمرة الأولى لي منذ عرفتها، احتضنتني بقوةٍ شديدةٍ، تكلمت معي بلهفة لم أتعودها منها من قبل، نظرت لي مبتسمةً فازدادت جمالاً ومسح الضياء على ملامحها بياضاً وبريقاً، وضعت عطراً قوياً له رائحة الفل الذي أعشقه، كاد يصيبني بالاستسلام لمنتهى شهوتي ورغبتي بين يديها. وعندما قالت: أعشقك، صغر العالم في نظري، وتجردت من

بشريتي لأصبح ملكاً له آلاف الأجنحة، فأحضان الحبيبة الدافئة جعلتني أجمل مخلوق بشريّ، الآن تصل كلمات حبها إلى قلبي مباشرة لم يكن لي حاجة إلى الأذن، فرغم همسها الذي يصل حد الوسوسة فإن قلبي يسمع كل حرف من هذا الهمس الجميل، كلمات عشقها أصابتني بالارتجاف، أقسم أن كلّي يُغيّر وكأني انسلخت من نفسي فبدأت إنساناً آخراً. هاجمتني السعادة دون رحمة دون هوادة، فمات شيطاني حرقاً بنار وهج كلماتها. لم أعهد هذا من قبل، ولم أتصور لحظة واحدة أني سأسمع من هذه الرّوح البديعة كلاماً عن الحب. نظرت إليها وأردت تقبيلها بكل قوتي، أردت أن أعرف طعم قبلةٍ مسروقةٍ من ثغر العشق نفسه. أسرق رشفة تُعين الفؤاد على تحمل الفراق والألم، ولكني أبيت على نفسي هذا وأردتها حرة ربما تنعم يوماً بقبلتي التي لم أسرقها خلسة، حتى وإن كان القمر قد بدد الظلام، ظلام نفسي.

انسللت بخفة من بين أحضانها، وكأني أسلخ جلدي وأنا حيّ، وقبلت يديها قائلاً وقد تصنعت غطرسة الرجل المسيطر على مكانٍ ليس لي علاقة به، والحقيقة أنه لا يحتويني مكاناً في العالم غير حضنها.

- شامية

ردت على الفور:

- قلب شامية وعقلها.

- قد تكوت هذه المرة الأخيرة التي أراك فيها، ولا أعلم متى أعود ثانية، اعتني بنفسك وبمذاكرتك. سيبلغك الأستاذ "عبد الحميد سعيد" بموعد كتابة استمارات التقديم للثانوية العامة سيحدد لك اليوم مسبقاً والمدرسة كما تعلمين قريبة من كفر رمان

نظرت نحوي، وقد سطع بريق عينيها أكثر من بريق القمر نفسه، اقتربت مني مجدداً وضعت يديها حول عنقي وشفتيها تقترب من ملامسة شفتي، فأصابني ما يفتت أنفاسي ويحللها، بدأت أضعف أمام جسدها المضيء، وأنهار كجبلٍ هزته زلازل وبراكين. لأول مرة أحس بحبٍّ حقيقي وحاجتي لامرأةٍ واحدةٍ في الكون كله. بعدها لا أدري أخرى أمامي، ولا أعرف من النساء شيئاً، لأنها كلهن وأعظمهن

لكني سيطرت على كل تلك الغرائز، أوقفتها تماماً حتى الأحاسيس، وعاودت الانسلاخ منها مرة أخرى فكان الألم أشد وأبرح وقلت لها:

- أريدك حرة يا شامية، أريدك لي ملكي، ولن أسرق ليلتي وأنتِ باسم عمي.

أصابها دمع تدلى على وجنتيها الموردة، وبعد أن طأطأت رأسها رفعتها ولحقتني ممسكة بذراعي من الخلف قائلة:

- لقد أحييت الحياة في شراييني، فكل نقطة دم وكل نبضة قلب وكل جزء مني يشتاق قربك يتحرق شوقاً لك، إنني أعشقك يا فايز فكلمة عشق قليلة وضئيلة بجوار ما يحمله قلبي لك.

استدرت لها وكنت محموماً بكلّ كلماتها، وأحسست بامرأة تفتنني جنتها بكلّ حرف سمعته، لتتوارى كلّ الدنيا في لحظة ضعف وشغف، وأضعف أمام إصرارها بقبلةٍ. ولكني أريدها حرة، ولكن ماذا عليَّ أن أفعله حتى تتوقف، أعرف أنّ شامية لن تتوقف وسأغدو مثلها، أستعمل غرامي لنسيان ألمي، وإن فعلت هذا فقد خسرت نفسي وشامية وعمي إلى الأبد.

بعد أن أحست "شامية" مني مقاومتها توقفت وبدت مجروحة ومتألمة، ولكنني داويت أمري ببعض كلمات الحبّ ولكنها استغربت مني وقالت:

- هل مللت مني يا فايز أو أنك ضقت بحزني ذرعاً، أم أنّك لا تحبني مثلما قلت أو أنني لا أشفي حبّك بشيء.

اقتربت منها أكثر، وتمعنت في وجهها الملائكي المثير، كأنّي بعدها سأنتهي. وسمحت لنفسي أن تتغلغل أناملي في طهارة خصلات شعرها الأسود، ثم رفعت بعضه من على جبينها قائلاً بعد صمت كاد يجرفني لممارسة مشهد ليس لقلبي عليه سلطان:

- لو تعلمين ما معنى وجودك في حياتي، لعرفتِ حقيقة ما يحدث الآن يا شامية، لرأيتِ أنكِ شيءٌ اسمه الرُّوح بالنسبة لي وأنّ الحياة بدونك موت وفناء. أريدك أن تعلمي أن حبّي لك ليس حباً شهوانياً كما اعتدت في أحلامي التي حكيت لك منها الكثير. بل هو حبٌّ عفيفٌ وطاهرٌ وفوق كل خطيئة مهما كان خطياً

- أعرف أن ما تقوله حقيقة غير أن فراقك صعب

تبسمت وسكنت بين يدي وهدأت أنفاسها وبعد فترة قالت:

- هل تعدني يا فايز بأنك لن تتخلى عني مهما طالت الأيام حتى يحكم الله في أمرنا؟؟

- أعدك يا شامية

أخذتني من يدي وأجلستني فقد بدا عليّ الإرهاق من طول المدة

انصرفت إلى داخل البيت. وجلست قبالة الفارس، ينظر كلّ منا إلى الآخر، تأملته وتأملني حدثته وحدثني. حتى طلت "معزوزة" الغجرية من ذاكرتي فقد رأيتها منذ ثلاثة أيام تجلس مع "عرب" في الحوش الخلفي لمنزلنا بالقرب من النخلة، تبتسمُ لي بوجهها الأسمر من أثر الشمس وخطوت الوشم الثلاثة على الذقن والنقطة الخضراء بجانب أنفها بينما الحلق الهلالي الكبير يهتز بهزة

الرأس فيضوي في أشعة الشمس. لم أرَها منذ زمنٍ بعيدٍ، يبدو أن الزمن وقد مرّ على وجهها أيضاً، هذا واضح من أثر الخطوط التي تتصدر جبهتها، وحول عينيها. ارتبكت "عرب" لما رأتني حين نظرت إلى الخلف، أعرف أن "عرب" لا ترتبك من شيء ولا تخاف إلا إذا كانت تفعل شيئاً خطأ وفي الخفاء لا تريد أن يعرف به أحد

منذ زمنٍ ليس بقريب سمعت النسوة يقلن أن "عرب" تعيش مع "سلطان" بالسحر التي تأتي به "معزوزة " الغجرية من الساحرة الكبيرة، وإلا لما كانت موجودة حتى الآن تأمر وتنهى وهي مثل النخلة الذكر لا عيل ولا بلح، تجدده كل عام وتدفع من أجله الكثير، والرجل لا حول له ولا قوة لا يعرف شيئاً، السحر جعله أعمى لا يرى شيئاً، حين تأتي الغجرية تفتح لها الباب الخلفي حتى لا يراها أحد، وحين تخرج تمكث "عرب" يوماً كاملاً، نهاراً وليلاً لا تخرج من البيت ولا تكلم أحداً ولما نسألها عن السبب تقول: "تأتي لتأخذ حسنة"

أتذكرها حين كانت تأتي وتجلس في صالة البيت تفرش المنديل وعليه حبات الرمل الناعم والودع وتدندن بصوتٍ مبهمٍ، ثم ترسم أصابعها خطوطاً كثيرة وتقول: " طرقه مفتحة علي السعد، ولكن المخاطر كامنة في باطن الغيب

والكواسر حاسده وكارهه ورب العباد المنجي ورسوله حافظ والطيب لا يضام وأنت يا "نادية" يا بنت "صادق" وابنك "فايز" محفوظين من العين ومن شر الشياطين ".

أسمع صوتها وأنا أتٍ من لعبي أمسك جلبابي الممزق بيدي أحاول أن أخفيه عن أمي، أحاول الدخول بسرعة أجتاز البوابة ولحظة أن أنظر إلى عينها التي لها لون من نور لا أعرفه أتسمر على العتبة، وتترك يدي ملابسي الممزقة فتراها أمي، بينما هي تبتسم وتشمّر ثوبها الأسود الشفاف المطرز بخيوطٍ في لون الذهب. يظهر قميصها الوردي تقول " لا تخف " تأخذني في حضنها فيفعمني عرقها تقول لي: " يا ابن الغالية " أحس برأسي في صدرها ويجري قلبي بالشوط تقبلني في فمي مرة، مرتان، ثلاثة... تضحك أمي وتقول " اتركي الولد يا قادرة "، تضحك "معزوزة" الغجرية وتقول لها أمي: " لا تغيبي عنا يا معزوزة " ترد عليها الغجرية: " أكل العيش مر يا أم فايز "

- أخرنا عليك يا أستاذ

أخرجني صوتها الملائكي من شرودي وغادرتني الغجرية على الفور. تحمل صينية الطعام بمساعدة "تباهي" العجوز لعلّها كانت معها بالداخل

- تأكل ولا أكلت عند "عرب" .

لهجتها تنم عن سخرية وكره أعرف سببه، ولم أسعَ إلى معالجة هذا ولا أعرف ما السبب

نهرتها "شامية" بعنفٍ حتى ظننت أنها على وشك ضربها

- لا تقولي هذا مرة ثانية هل سمعتي، هو بيته ومكانه وعلى أتم الاستعداد أن أحمل الطعام وأذهب إليه في أي مكان يكون فيه.

حاولت التخفيف من حدة الوضع الذي اشتعلَ فجأة، فوجهت كلامي إلى "تباهي"

- هي تمزح لا تقصد شيئاً ولا تعرف أنني منذ أن عرفت شامية لم ولن آكل طعاماً هنا في البلدة من يد غير يدها

- تسلم من كل شر

جلست بجواري أما الناحية المقابلة جلست "تباهي" التي لم يبدُ على وجهها أيّ تأثر بهجوم "شامية"، بدأت على الفور دون دعوة أو انتظار الأكل بنهم يدل على شهية مفتوحة أو جوع شديد0

انتهزت لحظة قيامها وقبل أن تعود بالشاي، خرجت على أطراف أصابعي حتى لا ينتبه " رعد " إلى خروجي، صعدت المنحدر بسرعة مخافة أن تلحق بي وأعصابي لن تتحمل المزيد0 لم أدرِ بنفسي ولا أي الشوارع سلكت أو حتى

الحوارات التي دارت في عقلي، كلّ ما أعرف أنني خرجت مسرعاً وها أنا أدفع البوابة وأدخل، حتى أنني لا أعرف هل أغلقت البوابة خلفي أو لا

ما أن أغلقت باب غرفتي حتى ألقيت بنفسي على السرير منهاراً خاوٍ من القوة والعافية وعلى كاهلي أثقال تنوءُ الجبال بحملها.. انقضى وقت ليس بقليل وأنا على هذه الحالة، أصرخ في نفسي لماذا تصر أن تبقى بكامل صحوك لماذا؟! إن أفضل وسيلة لقتل الوقت هنا هي النوم، ارتحلت باتجاه إغفاءة لم تتم، وبدأت الذكريات الغزيرة تندفع لتغطي أرض الغرفة الطينية، ألقيتُ رأسي بين قدمي وذراعي حول ركبتي، هبّت رياح غطت على صوت البعوض.. استندت على قدمي بصعوبةٍ ثم نفضت رأسي بحركة عنيفة، أشياء كثيرة تساقطت، كلّ الأشياء الجافة، بينما ظلت عيدان الحزن تتمايل هناك في أقاصي القلب.. ارتعشت أياماً بعيدة، بدأت سنون كاملة تزحف باتجاه ذاكرتي. يتدلى الصمت من سقف حجرتي، حيث العزلة ثم يدور حتى يكتمل، ثم يزحف باتجاه المنزل ثم باتجاه البلدة الميتة. أستطيع الآن أن أسأل نفسي، مَن الذي فجّرَ داخلي كل هذا الرحيل، وأغرقك في الغياب الصامت.. قال أبي بعد أن شبَّ عودي " لا يلزمك الكثير هنا " قلت يلزمني روحٌ طليقة، يلزمني أن أكون موجوداً وفعالاً في الأماكن التي أسكنها، أنا غير موجود

هنا وفي أماكن لست موجوداً على الإطلاق، كل ما أتمناه لن يستطيع أحد العثور عليه.. تخرج من ذاكرتي طيف امرأة ملتفة بعباءة، لا أعرف هل هي ذاهبة أم آتية.

تظهر وتختفي كومضةٍ خاطفةٍ. هي " نادية " أمي بجمالها الخاطف من سواد العينين وبياض البشرة وتناسق القسمات، أنفٌ صغيرٌ وفمٌ صغيرٌ وقامةٌ طويلةٌ وعباءةٌ زرقاء بلون البحيرة، تدور وتتهادى بين عيدان الغاب على شاطئ البحيرة تعابث وتلوي أعناق العيدان، تدور وتنتفض تماماً كحمامةٍ. تقول: " الحياة قاسية هنا يا ولدي " أحاول أن أمسك بشيء في قبضتي يبقيني في دائرتها، تختفي " نادية " يأتي من هناك من بعيد سيلٌ مدمر من خلف الجبال، يدمره ليصبح عارٍ إلا من صخوره الكبيرة ويخلف الأرض وحيدة.. استندت على رؤوس أصابع قدميّ، وامتدت يداي عالياً لتدفع الزمن المحترق خارج حدود غرفتي، ولكني لم ألمس غير رؤوس أصابع كفي، أعدت الكرة ثانية، عبثاً تذهب محاولاتي، ثم يتدفق الحزن من نبضات ذاكرتي. تخرج عرافة " ستقتل أعز الناس إلى قلبك يا ولدي ". أسمع صوته العالي الأجش يأتي من الخارج

- يا فايز الفجر أذن

أنظرُ من الشباك إنّه عمي "غالب" ينتظرني بالعربة الحديدية ليوصلني حتى الطريق، ومعه أشياء كثيرة أرسلتها شامية.

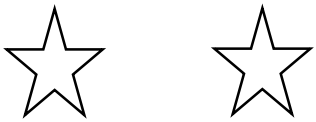

تلةُ الغجرِ
الفصل التاسع

ثلاثة أشهر مرت على آخر ليلة رأيتها، ثلاثة أشهر مرت وأنا لا أكف لحظة عن التفكير بها، منذ الليلة الأولى أناديها، غيابك طال يا "شامية" يوم واحد أطول من الدنيا كلها، أناديها في أحلامي وفي يقظتي وكأني على وشك الجنون حتى أصابتني حمى كادت أن تفتك بي لولا عناية الله ثم صهر أصدقائي من حولي خرجت من المستشفى على المذاكرة والإشراف على ورشتين التجليد وحضور الندوات في أوقات فراغي. الآن أشارك تقريباً في كل الندوات الأدبية والثقافية والفكرية، في أول الأمر كان حضوري مسار استعجاب الكثير قالت لي: "نجوان السعيد" هذا التغير أحبّه وهذا الانقلاب كنت أنتظره، أحييك على المواجهة وأهنئك على النصر الساحق

كانت ندوتي الأولى ندوة أدبية شارك فيها بعض الصحفيين لم أكن أعرفهم، بعدها بأيامٍ فوجئتُ بصورتي في جريدة الجمهورية وتحتها قصيدتي " طوى الصمت ما بيننا[3] " كاملة والتي كتبتها قبل سفري إلى البلدة وتقول:

طوى الصمت ما بيننا فتكلمي ... إني أخاف من الجواب المبهمي
وضعي سيوف الصمتِ في أغمادها ... وابني من الحرف الجميل وهدّمي
خوضي مواضعي أجيبي اسألي ... عن أي شيء حدثيني وأسهبي
كلي آذان حلوتي فترنمي فما ... من عاداتي رصد الجمال الملهمي
إن السكون تُخيفني لمساته ... والظلُّ يثلج في برودته دمي

[3] قصيدة طوى الصمت ما بيننا للشاعر عبدالله الأسطى

شفتاكِ والصمت المحير فيهما كالوردة الحمراء قبل الموسمي
أنا انتظرت ولم أزل إن تفتني أذني بصوتٍ واثق متنغمي
إلى متى سيبقى حوارك بسمة مجهولة التعبير من هذا الفمي

نالت تصفيقَ واستحسانَ الجميع وطالبتني "رضوى القاسم" وغيرها من الحضور إلقائها مرة ثانية، ورغم خوفي في بداية الندوة أن يعجز لساني ويهاجمني الخوف وأعوانه، لكن ظلَّ لساني فصيحاً دون خوف مثل قصيدتي من البداية وحتى النهاية. أعلم يا كلّ حياتي أنك الآن تضعين صورتي فوق قلبك، أعرف أنك الآن حفظتي قصيدتي عن ظهر قلب، وأعرف أنك الآن تتذكرين ما حدث في الليلة الأخيرة وتقولين إنما أنت من هربت وقبلها كنت تصدني بالصمت مرة وبمقاومتي مرة أخرى

وضعت الجريدة في طريق عمي وما أن شاهدها حتى فرح بها مثلي وربما أكثر ووضعها إلى جانب المذكرات والمراجع النهائية التي أرسلتها إليك.. أخبرني يومها أنكِ كتبتِ استمارة التقدم للثانوية العامة وأن الأستاذ "عبد الحميد سعيد" أرسل لك في الوقت المتفق عليه، وأنّك تبكين كثيراً وأن حياتك غير جيدة لا تأكلين إلا القليل، تجلسين صامتة تحت سقيفة العنب، شاردة وغائبة عن الوعي.

لحظتها حبستُ دموعي عرفت ما تعانيه من ألم الفراق الذي عانيته مثلك وكاد الفراق الحزن أن ينهي حياتي. قلت لعمي الموقف صعب يا عمي والامتحانات على الأبواب وإنّها بدأت متأخرة، لعلّها خائفة أو أن هناك بعض الدروس لا تفهمها، لا تقلق عليها.. قال أنّه عرض عليكِ أن يأتي ببعض المدرسين وأنك رفضتِ

أعرف سبب رفضكِ حتى لا يجلس أحد مكاني ويشوش صورتي في عقلك ورغم حرصك على النجاح وتحقيق حلم عمرك، لتعلمي يا عشقي الأول والأخير أني الآن في حاجة قصوى لرؤية وجهك الملائكي والغوص في خضرة عينيك والحديث معك ولتذهب كل الاتفاقيات وكل الأعراف إلى الجحيم..

الآن أشعر أنك في تحسن وأن صحتك أفضل، أعرف أنك قرأتِ الرسالة التي كتبتها لكِ كما أخبرتك سابقاً، لما سألتني " كيف؟ سأعرف أخبارك يا فايز." قلت لك: عليك أن تفتحي الكتاب الذي سوف أرسله إليك، ستجدين بعض الكلمات تحتها خط بالقلم، وعليك تجميع هذه الكلمات، ستكون رسالتي إليك. أعرف أنك تنتظرين ذهاب عمي وسوف تحضرين ورقة بيضاء وتبدئين بالمرجع الأول حيث أول كلمة وكلك حماس في الانتهاء من آخر كلمة. قلت لك في الرسالة: "من أجلي من أجل أن يستمر عهدنا، الذي قطعناه سويّاً،

اعتني بنفسك وبصحتك كُلي جيداً إذا استمر الحال، أخاف أن تصيري مثل "نور" مع أن الفارق كبير لأني ما زلت على قيد الحياة..أحبك"

ها أنا أحدثك كما اتفقنا أن نتحدث كل يوم في الساعة الخامسة تماماً وكأننا نجلس كلٌّ منا أمام الآخر.

الوليمة التي أرسلتِها يا "شامية" مع عمي من بطٍ وفراخٍ ومحشي بأنواعه، وغيرها من أصناف الطعام انهالت عليها الأيدي أكلت منه "نجوان السعيد" التي حدثتكِ عنها و"غادة وصفي" صديقتها وهي طالبة في كلية الصيدلة و"هاني صلاح" "وخليل" و"علي حسين" و"سيد كمال" وآخرون حيث جاءت هذه الوليمة في نفس اليوم الذي حدد فيها "هاني صلاح" ندوة فكرية ولم يكن معه أموال لدفع ثمن مشروبات النادي وغيرها من المصاريف، أجّلها أكثر من مرة، وكان الدور عليه في تحمل النفقات

كنت أنا صاحب الفكرة لما وجدته مهموماً، عرضت عليه الفكرة رحبَّ بها على الفور وقام من فوره وتعلق في رقبتي، ثم عرض فكرة هذه الوليمة الريفية عليهم فوافق الجميع، أعطاهم العنوان وهو سهل، بجوار الجامعة توافد الحضور كان أولهم "علي حسين " الصحفي الذي أصرَّ على توصيل عمي بسيارته الملاكي حتى محطة القطار. وعندما عُدنا كانوا قد انتهوا من التسخين

وإعداد السفرة، دعت "نجوان السعيد" صديقتها "رضوى" لهذه الوليمة والندوة وهي تعمل صحفية وكاتبة روائية ولها عدة روايات وكتب أطفال.. وكانت الندوة فكرية وأدبية وأحياناً تدخل فيها السياسة والاقتصاد والدين. بعد الانتهاء من الوليمة والتي قضوا عليها تماماً رغم أنها كانت كثيرة، اتفقوا أن تعقد ندوة يوم الخميس الأخير من كل شهر مثل سهرة الست أم كلثوم بشرط أن يتحمل المضيف تكاليف وليمة مثل هذه

أعلم أنك بذلتِ جهداً خارقاً من أجل إعداد كلّ هذه الكمية وكل هذه الأصناف.

بدأت أنا بتقديم الندوة حيث طلبت مني " رضوى" سماع قصيدتي "طوى الصمت ما بيننا" فقد لبت دعوة "نجوان السعيد" بشرط سماع هذه القصيدة ومن كاتبها شخصياً. الآن أستعدُ للذهاب سريعاً إلى ورشة التجليد يحتاجون بعض الخامات وكذلك للوقوف على بعض الطلبيات وموعد التسليم.

جلست شامية وكأنّها على جمر نار، هنا برهة وهناك برهة تفتح البوابة وتمسحُ عيناها المنحدرَ، لا أحد آتٍ تدخل ثم تخرج تجلس لحظات تحت سقيفة العنب تحدث نفسها أنه قال لن أغيب كثيراً قبل العصر سأكون هنا، والعصر أذن منذ قليل، تصعد السلم إلى الداخل ثم لا تلبث أن تهبط إلى الحديقة،

ظلّت هكذا وقتاً طويلاً بينما "فهد ورعد" قابعان هناك عند العربة الحديدية وبجوارهما الحمار وقبل أن يطرق البوابة شعر به ثلاثتهم هي وفهد ورعد هرولا ناحيته ومن خلفهم "شامية" وعندما دق "غالب" على البوابة لم تسِر ولم تمشِ، بل طارت وما أن فتحت البوابة وقبل أن يدخل تعلقت في عنقه حملها بين يديه ودخلا معاً، كما طار أيضاً الكلبان ووثبا نحوه كان قد أنزل "شامية" ليرحب بهما.. لم تعطِه أيّ فرصة راحت تمطره بوابلٍ من الأسئلة.

- كيف صحته؟ هل يذاكر؟ هل يأخذ باله من صحته؟ هل أكل من الطعام؟ هل هو بخير لماذا تصمت هكذا؟!

- أنتظر نهاية الأسئلة.

يضحك "غالب"، يربتُ على كتفها يأخذ وجهها بين راحتيه ويطمئنها قائلاً:

- هو بخير ويذاكر جيداً وله أصحاب كُثر، أخذني أحدهما بسيارته حتى محطة القطار، ولم يتركني هو و"فايز" حتى تحرك القطار، وقد أخذ الطعام وقال لي وهو يضحك: هذه الوليمة من حظ أصدقائي، وأرسل لك هذه النقود

- الحمد لله أنه بخير، ولكن لماذا أخذت منه المال وهو في حاجة له؟!

- رفض أن يأخذ مني أي أموال، وأصرَّ على أن يرسل لك هذا المبلغ قال: " يا عمي إنَّ ورشة التجليد الآن، توفر أرباحاً كثيرة، أستطيع من خلالها الإنفاق على تعليمي وتعليم زوجة عمي".

يقصدكِ أنتِ، وقال أيضاً:

- "أنني أدخر الباقي لشراء شقة تمليك كبيرة لتكون بمثابة بيت لي بعد تخرجي ولأنني أنوي الإقامة هنا لتكملة دراساتي العليا"

يبتسم "غالب" وهو يسأل "شامية".

- ولكن ماهي الدراسات العليا يا شامية؟؟

- يريد أن يصبح أستاذاً في الجامعة

- يستحق كل خير هو صورة من أمه رحمها الله، نقي لا يحمل ضغينة في قلبة نحو أحد، يحبُّ الخير للجميع، "نادية" أمه كانت كذلك تؤثرنا على نفسها، تُفني صحتها في خدمتنا، كانت بمثابة الأم والأخت وزوجة الأخ، كانت تنهر "سلطان" كلما وجدته يجلس في طرقات البلدة أو في المنزل وأنا أعمل بمفردي في الغيط. أوصتني بتربية "فايز" والإنفاق على تعليمه حتى لو بعت كل الأرض.. أم فايز رحمها الله ورثت عن أبيها أربعة فدادين، كانت هذه الأرض النواة الأولى لكل ما عندنا من أرض

يقول وهو ينهي أكله بسرعةٍ:

- سوف أحكي لك بعد أن أعود من الأرض.

حاولت أن تمنعه قائلة:

- استرح اليوم، عمي "سلطان" هناك ومعه بعض العمال، والمغرب سوف يؤذن بعد قليل

- سوف أعود بسرعة، فقط أطمئن على العمل.

احتضنت كل ما أرسله، أحضرت ورقة ثم بدأت في جمع الكلمات التي تحتها خط أو الكلمات المكتوبة، تقرأها ثم تعيد قراءتها مرات ومرات، تقول بصوتٍ مسموعٍ كلامك أوامر يا قلب "شامية" كل ما قلته سوف ينفذ، لا تخف لن أكون "نور"

ثم راحت تحدث نفسها، وهي جالسة أمام لوحة الفارس، وكأنك أب حنون حتى أهلي ترسل لهم وأنت في حاجة إلى كل قرش حتى وأنت بعيدٌ لم تنسَهم، أتذكر ما اتفقنا عليه، أيّ أموال ترسلها آخذ منها إذا كنت محتاجة وأرسل الباقي، لن آخذ شيئاً سأعطيها للحاجة، ولكنك يا حبيب قلبي لم تقل لي يومها أو بعد ذلك أنك زرت أمي يومَ قدمت أوراقي إلى المدرسة!! يوم أن أعدت لي روحي وحلم حياتي لم تقل لي يومها أو بعدها.. أعرف أنك خشيت أن

تسبب لي إحراجاً، قالت أمي عن الأشياء الذي أخذتها معك، وأنت تبشرها بخبر عودتي إلى المدرسة، هل كنت تشعر بألم الأم وقهرها؟ هل كنت تحس حزنها وأنها تعد نفسها السبب في حرماني من التعليم؟ لِمَ بشرتها بهذا الخبر السعيد. لم تعرف ماذا تفعل بكت وأطلقت الزغاريد لحظتها ماتت "هنادي" زوجة أخي من الغيظ، وقفت أنت إلى جانبي حين قالت هي "مذاكرة إيه ووجع دماغ ومصاريف وفي النهاية ا لفشل والرسوب ".

قلتَ لها أنّ "شامية" نبيهة وذكية تستطيع النجاح في المدرسة وفي البيت وفي إسعاد زوجها، وأنها بعد شهور قليلة ستصبح في الجامعة وبعدها ستكون محامية مشهورة، ترفع رؤوسنا جميعاً0 لحظتها خرجت وهي تعاني ألم الهزيمة والقهر لم تجد سوى تحريك فمها في سخرية وهي تقول "محامية مرة واحدة عشنا وشوفنا" .

قالت أمي: إنك يا "فايز" يا حبَّ عمري دخلت عليهم في هذا اليوم ومعك السعادة والفرح، جعلت أعناقهم في السماء، دخلت ومعك الكثير لأمي وأخي الصغير.. ملابس الشتاء "لسالم" ملابس لم يرَها من قبل، جعلت كلّ الأطفال يتجمعون حوله يقولون له من الذي اشتراها لك يقول بكل فخر أختي "شامية"، لأنك قلت لهم أن "شامية" هي التي أرسلت كل ذلك.. ومعك أيضاً

لحم وأرز ومكرونة وخضار وأنواع كثيرة من الفاكهة.. لم تكتفِ بذلك . قبلت يد أمي وقلت لها أنك من الآن ابنها وأعطيتها الكثير من المال، قالت لي: إنك أعطيتها يا حبيب روحي ما كانت تحصل عليه من أجر طوال الصيف من حصاد قمح وتقشير ذرة وجني القطن وأعمال أخرى.. وكأنّك تعرف ما يحبّه "سالم" من حلويات وفول سوداني وحمص وغيره وضعت في يديه حتى امتلأت ولما امتلأت وضعت في جيوبه وأعطيت ما تبقى لأمه. لم تتركها حتى قرأت معك الفاتحة على عدم الخروج للعمل هي أو "سالم " مرة أخرى، قلتَ لها أيضاً: " إن عملك في الحقول أنتِ و"سالم "يجعل "شامية " حزينة وأن هذا لا يصح، وأنه قد آن الأوان من هذه اللحظة أن تتحمل "شامية" المسؤولية عنك ". لم تقل عمي أو أنت دائماً تبحث عن مشاعر الآخرين، قلت لها إنك تحملتِ الكثير في تعليمها وقد آن الأوان أن تتحمل كل نفقاتك وحين قالت لك أمي أن "شامية" لا تعمل وحتى إذا كانت تعمل فإن أموالها لزوجها لا نريد أن نكون عبئاً على أحد" قلت لها أننا الآن أسرة واحدة ".

لم تنسَ أقلام وكراسات وألوان "سالم" وحقيبة جلد بدلاً من كيس القماش الذي كان يضع به كتبه. لحظة أن أخرجت لي أمي، وأنا أزورها بعد سفرك بفترة، قطعة قماش قطيفة وشال من الصوف الأسود، قلت لها إن "حسني"

أخي الكبير هداه الله وكم أن سعيدة بذلك. قالت لي أن " حسني" مشغول بزوجته وأن الأستاذ "فايز" هو الذي أهداني إياها وقال لي كل عام وأنت بخير يا ست الحبايب وأن عيد الأم الشهر القادم وأنه سيكون في الكلية ثم راحت تحكي كل ما فعلته، ما أروعك أيها الفارس النبيل.

لم أفرح قط في حياتي مثلما فرحت هذا اليوم، لم أفرح بنجاحي مثلما فرحت بنجاح "شامية "، كنا في أول شهر يوليو جاء أبي وبصحبته عمي "غالب"، وضع في يدي استمارة النجاح تزينها صورتها كملكة متوجة، طالعتُ على عجلٍ درجاتها كانت جيدة جداً قلت:

- هذا رائع وجميل أن تحصل على هذه الدرجات الممتازة.

قال عمي أنها قالت إن الأستاذ "فايز" لخص لي كل المناهج وعلمني كيف أذاكر وأراجع كل مادة على حِدى وأن الفضل له بعد الله.

- الفضل لله ثم لها يا عمي، هي من أصرت وقبلت التحدي مع نفسها، ألف مبارك لها

تدخل أبي في الحديث قائلاً:

- وأية كلية سوف تقدم لها يا فايز؟

- هي التي تحدد الكلية التي تختارها يا أبي، مجموعها يؤهلها لاختيار أي كلية تريدها

ابتسم عمي وهو يقول:

- هي قالت دع فايز يختار لي، هو يدرك ما يناسب ظروفي يعرف أكثر مني

قلت:

- إذاً كلية الحقوق هي الأنسب لها

قال أبي وعمي في وقتٍ واحدٍ:

- وهل ستذهب كل يوم؟

- لا سوف أقدم لها انتساباً موجهاً، يعني تحضر أيام الامتحانات وتذاكر في البيت

- والكلية هنا في القاهرة

- لا يا عمي في جامعة طنطا

قال أبي:

- وهل ستسافر من كفر الشيخ إلى طنطا أيام الامتحانات؟!

- لا يا أبي كلية الحقوق تابعة لجامعة طنطا، ولكنها موجودة في كفر الشيخ.

- الحمد لله مسافة بسيطة، من الطريق السريع إلى كفر الشيخ، ولكن التقديم في طنطا أم في كفر الشيخ؟

- لا مكتب التنسيق هنا يا عمي، في القاهرة، وسوف أقدم الأوراق المطلوبة في المرحلة الأولى.. بعدها سوف أرسل لك بطاقة الترشيح، ولما تفتح المدارس والجامعات، تأخذها إلى كفر الشيخ تتركها في الكلية وتقضي بعض مصالحك أو تشتري بعض الطلبات تكون هي قد استخرجت الكارنية ودفعت المصاريف.

- هذه الإجازة لم تنزل البلد يا فايز كنت تنتظر النتيجة، والآن نجحت والحمد لله، فلماذا لم تأتِ؟!

- يا عمي العمل في ورش التجليد، يحتاج الكثير من الوقت والجهد، وخاصة وأن الإجازة الصيفية هي موسم العمل بالنسبة لنا، ولأن سوق العمل اختلف عن السابق. هناك الكثير من ورش التجليد، والمنافسة أصبحت شديدة، ولو أهملنا لحظة سبقنا الكثير وضاع شقاء السنين

- يا بني عندنا الكثير، لا يكون عندك شاغل

- أعلم ذلك يا أبي، ولكن هذا عملي الذي أتقنه وأحبه.

مرّ هذا العام بسلام، إلّا من بعض الاحتجاجات البسيطة وغير المؤثرة لزيارة الرئيس السادات للقدس. ولم يجد أي جديد في الجامعة باستثناء حضوري المكثف لكلّ ندوة أعرف موعدها بدعوة أو بدون دعوة، عرفني الجميع في الجامعة وخاصة بعد دخولي انتخابات اتحاد الطلبة وفوزي في الكلية وكذلك في الجامعة بمقرر اللجنة الثقافية، وأصبحت معروفاً لدى المؤسسات المهتمة بالثقافة خارج الجامعة. في ذلك اليوم كنا في نهاية شهر يناير قد انتهينا من امتحانات الترم الأول، وكذلك "شامية" قد انتهت أيضاً من امتحانات الترم الأول من عامها الأول لها في كلية الحقوق وكنت قد أرسلت لها الكتب والمذكرات وبعض امتحانات الأعوام الثلاثة الماضية، وكنت أكدت عليها عن طريق عمي أن تحل هذه الامتحانات وتركز عليها في المذاكرة، أعرف أنها تعاني من الحمل لعلّها وضعت منذ أربعة أشهر، لعلّها وضعت في آخر شهر سبتمبر أو في أول أكتوبر. آخر زيارة لعمي كانت في النصف الأول من سبتمبر، قال يومها أنها على وشك الولادة، لا أعرف هل أنجبت ولداً أم بنتاً، عمي يريد ولداً. في الأرياف يحبون الذكور، لعلّه يشبهها، الفضول والخوف عليها ينهشان قلبي.

وصلتني دعوة من مسؤول الصالون الثقافي والفكري بجمعية الشبان المسلمين، سلمها لي "هاني صلاح"، وذلك لحضور ندوة فكرية تحمل عنوان " التيارات الفكرية في دائرة الضوء " سألته:

- وهل يعرفني مسؤول الصالون الثقافي؟

ضحك "هاني" وهو يقول:

- لا أعرف إن كان يعرفك أم لا، ولكني أعتقد أن "رضوى القاسم "هي من كتبت اسمك ضمن أسماء الحضور كأديب وشاعر فهي من أشد المعجبين بقصائدك

قال هاني:

- وصلتني أنا أيضاً دعوة ومعي "سيد كمال" كتيارات شيوعية وهناك "منتصر الزياد" و"عارف يوسف" جماعات إسلامية و"رضوى القاسم" وسعيد أيوب" صحافة و"نجوان السعيد" و"خليل الدمياطي" تيارات ليبرالية وهناك مدعوون لتيارات وسط وأحزاب وغيرهم.

- ماذا تقصد بكلمة ليبرالية؟؟

-كلمة ليبرالي في المعجم العربي الجامع تعني، حر، متحرِر، وهو مذهب يقوم على الاعتقاد في أهمية حرية الفرد ورفاهيته، وإمكانية التقدم الاجتماعي من

خلال تغيير التنظيم الاجتماعي وتجديده. بمعنى آخر يشير مصطلح الليبرالية إلى الفلسفة السياسية، أو الرأي المنتشر حول مجموعة من أفكار الحرية والمساواة ومن هنا يمكن القول، أن الليبرالية تختص بآراء وأفكار تؤيد أفكار مشتركة كحرية التعبير ولا تتأثر بأي من الأيدولوجيات الأخرى.. بمعنى أنهم لا ينتمون لأي من الأحزاب أو التيارات الفكرية الموجودة على الساحة ولهم آراءهم وأفكارهم الخاصة بهم

- شيء جميل، وهل نجوان السعيد تؤيد الفكر الليبرالي؟

- نعم هي ليبرالية

- إذاً منذ هذه اللحظة أنا أيضاً ليبرالي حر

يضحك "هاني" وهو يقول:

- سوف تسعد نجوان بك، لأنك فعلاً إضافة لهم، لأنك رائع كإنسان أولاً ثم كشاعر ومُثقف، ثم عليك أن تكون جاهزاً في تمام السادسة مساءً

- جاهز من الآن يا فنان

بعدها بساعتين أخذني "سيد كمال "و"هاني صلاح" ركبنا أتوبيس **503** من بين السريات إلى محطة أحمد حلمي نزلنا بشارع رمسيس، دخلنا الجمعية من ثمة دخلنا إلى قاعة كانت كبيرة ومُرتبة بشكل يليق بهذه الندوة، حتى

في الجلوس تم تخصيص مكان لكل تيار من هذه التيارات، المنصة على شكل مربع ناقص ضلع. جلس في المقدمة الأستاذ "نعمان حمدي" المُكلف بإدارة الندوة وهو كما قالوا وفدي إلى يمينه جلست أنا و"رضوى القاسم" و"سعيد أيوب" وإلى يساره جلست "نجوان السعيد" و"السيد صالح " سيناريست و"سعد أبو الهدي" متخصص في السياسة الدولية، أما في الضلع الثاني للمربع إلى جهة اليمين جلس "منتصر الزياد" و"عارف يوسف" والشيخ "أبو الفضل البيلي"، أما في الضلع الثالث للمربع إلى اليسار جلس "أيمن أبو النور" و" سيد كمال" و"هاني صلاح "، أما في مواجهة المنصة، جلس عدد كبير من الجمهور، حتى امتلأت القاعة عن آخرها بالمدعوين.

بدأت الندوة على غير ما كنت أتوقع، حيث أُلقى الأستاذ " نعمان" التحية ثم ذكر اسم الندوة وطلب من الجمهور الإنصات والاستماع، وطلب من على المنصة عدم مقاطعة المتحدث، فقط دون ملاحظاتك وسوف تأخذ وقت قصير للتعليق، ثم بدأ ما لم أتوقعه، وخاصة وأنا لم أحضر ندوات بهذا الكم وهذا الحجم، قال قبل أن نبدأ سوف أقدم لكم شاعراً مرهف الإحساس وعذب الكلمات سوف يكون له مكانة متميزة بين شعراء مصر والوطن العربي، إنّه " فايز سلطان " الطالب بالفرقة الرابعة آداب القاهرة. وما أن

صفق الجمهور حتى ارتعدت فرائصي، ولكني خلال لحظات استطعت السيطرة على نفسي، وألقيت قصيدتي " تجليات على سفح المنحدر " ثم "طوى المدى" ظلَّ التصفيق مدة كبيرة، ثم تحدثت "نجوان السعيد" عن وطن سعيد متقدم يحترم ويقدر المرأة، وكيف أن التيارات الفكرية تجعل الوطن متناحراً وأن الإسلام لم يكن يعرف كل هذا الكم، الكل واحد على كتاب الله وسنة رسوله الكريم

ثم بدأت " رضوى" كلماتها أن التناحر والذي يصل حد العنف بين هذه التيارات يجعل الوطن غير مستقر لأن ذلك يؤخر عجلة الإنتاج ولابد أن يكون هناك ثقافة الاستماع للأخر وتقبله وتقبل النقد.. وتحدث "السيد صالح" عن التخلف الذي يعانيه الوطن العربي وعن الأمم التي تقدمت بفضل العلم.. أما "سعيد أيوب" تحدث عن الأعلام بكل أنواعه ودوره في القضاء على ظاهرة العنف والإرهاب

ثم عاد مدير الندوة وطلب مني قصيدة أخرى فألقيت قصيدة "هب أنني"

وما أن وصلت الكلمة إلى الضلع الأيمن في المربع، حتى دوى تصفيق أشعرني بالخوف تحدث "أبو الفضل" عن الفريضة الغائبة وهي الجهاد. وما قاموا به في مقاومة المحتل الإنجليزي والصهاينة في حرب فلسطين، وكذلك العدوان

الثلاثي. وأيضاً في توعية المجتمع بضرورة الحكم بالشريعة الإسلامية.. ثم أكمل "منتصر الزياد" عن دور الشيوعية في تحطيم الهوية الإسلامية وضرورة التصدي لهؤلاء الإلحاديين ثم بدأ بسرد التيار الشيوعي منذ تأسيسه ومنذ نشأته في مصر قائلاً:

1- تم تأسيس الحزب الشيوعي في مصر عام **20/ 1921**على يد اليهودي "جوزيف روز نتال" إلى جانب مجموعة من المصريين من أمثال "محمود حسني العرابي" و "محمد عبد الله عنان" و"علي العناني" و "سلامه موسي" ، ظل اليهود مسيطرون على الحزب الشيوعي مثل "إبرام كاتي "و"هليل زانبرج "و" وزاسلافسكي وستيوكاندر" هؤلاء اليهود وحزبهم كانوا نواة للفيلق اليهودي الذي بدأ تكوينه عام **1922**ليحل محل القوات البريطانية المتمركزة في فلسطين..

وإليكم بعضاً من أسماء اليهود رؤساء الحزب الشيوعي تكلمت عن أول مؤسس للحزب وهو اليهودي "جوزيف روز نتال" من بعده

2- " بول جاكودي كومب "عام **1935**وحزبه أنصار السلام الشيوعي،

3ـ منظمة تحرير الشعوب **1939**لليهودي "مارسيل اسرائيل" .

4ـ اتحاد الوطني الديمقراطي وأسسه اليهودي "مارسيل اسرائيل" ومعه "ريمون أجيون " وساندر روكه" و"مد موزيل استر" و"هزيت آربيه" و"عزرا هراري" وجميعهم من اليهود.

5 ـ الحركة المصرية للتحرر الوطني 1943على يد اليهودي "هنري كوربيل".

6ـ منظمة الآيسكرا أي الشرارة 1943بزعامة اليهودي "هليل شوارتر".

7ـ الطليعة الشعبية للتحرر 1954بزعامة اليهودي "يوسف درويش".

8 ـ التكتل الثوري لكل من "أنور عبد الملك" و"شهدي عطية "ضد كل من "هنري كوربيل "و"هليل شوارتز".

9ـ صوت المعارضة لليهودي "أوديت حزان "و"سيدني سلامون"

ولتعلموا يا سادة أن "ويكي شوارتز" هو صهر "موشي ديان " قائد الكيان المغتصب في حرب 1967كما أن "هنري كوربيل" و"روز نتال" و"مارسيل ليون" و"هليل شوارتز".. لهم علاقة مباشرة بفرق الهجانة الصهيونية.. والذي لا يعلمه الكثير أن "هنري كوربيل" كان رجلاً مهماً للغاية في الكيان الصهيوني الغاصب في فلسطين المحتلة فقد قدم لهذا الكيان خدمات تفوق ما قدمه هؤلاء الإرهابيون أمثال "موشي ديان" و"مناحم بيجن" وغيرهما وقبل أن أختم كلمتي سوف أضع أمامكم الهدف الحقيقي لهؤلاء اليهود من

الحزب الشيوعي في مصر والوطن العربي أقول لكم أن هؤلاء اليهود الذي ذكرتهم قد وضعوا الانشقاقات داخل الحركة الشيوعية، حتى يركز الشيوعيون العرب اهتمامهم على قضايا هامشية وتنظيمية. ويتركوا القضية الأم، التي تشغل العرب والمسلمين أعني قضية فلسطين المحتلة التي اغتصبها اليهود الغزاة، ويتصارعون حول النظرية الشيوعية وأدبيتها ويتجاهلوا ما يجري على أرض الواقع من احتلال فلسطين. ولما لا والشيوعية تنكر وجود الله وتدعو إلى الإلحاد، وما أن انتهى "منتصر" من كلمته حتى دوى في القاعة هتافات مختلفة، لا إلهَ إلا الله والشيوعيين أعداء الله. والموت للشيوعيين.

بعد عدة محاولات، استطاع مدير الندوة من السيطرة من جديد واكتفى بكلمة "أبو الفضل" و"منتصر" ولم يعطِ الكلمة "لعارف يوسف" بل انتقل مباشرة إلى "هاني صلاح " الذي بدأ حديثه بتحية الحضور ثم قال:

- قبل أنا أسرد تاريخ جماعة الإخوان المسلمين الدموي وكذلك الجماعات الإسلامية منذ أن ابتليت بها مصر. منذ أسس "حسن البنا" الملقب" بحسن الساعاتي" هذه الجماعة عام **1928**بمساعد الإنجليز ومباركتهم له، وكذلك تمويلها للقضاء على حزب الوفد وإبعاده عن الساحة السياسية وأخذ مكانه

وإخمادهم لاحتجاجات أهالي بورسعيد عام 1942وحريق القاهرة ودورهم مع الإنجليز بعد حادث المنشية وكتاب "سيد قطب" معالم في الطريق، الذي فتح الباب على مصراعيه لخروج الجماعات الإسلامية من عباءة الإخوان المسلمون 0 كان لابد لي أن أشير إلى بعض النقاط في حديث الأستاذ "منتصر" القيادي في الجماعة الإسلامية وهي إغفاله ما قام به الحزب الشيوعي المصري والتي تتمثل في:

1 ـ جلاء الإنجليز عن مصر وتأميم قناة السويس

2ـ تمثيل العمال والفقراء في البرلمان

3 ـ المناداة بالتوزيع العادل للثروات وتحسين الأجور والمعاشات

4ـ العمل على تحرير المرأة المصرية ونشر الوعي الصحي والثقافي

5ـ تأسيس نقابة العمال لضمان حقوقهم من الفصل التعسفي

ثانياً: عرض بعض رؤساء الحزب من اليهود، ولم يذكر هؤلاء الصفوة من الأدباء والمفكرين والفنانين، والذين كان لهم دور كبير وفعال في تنوير ونهضة المجتمع المصري. منهم على سبيل المثال لا الحصر عبد الرحمن الشرقاوي، عبد الرحمن الخميسي، نعمان عاشور، يوسف إدريس، موسى كاظم

وهو شقيق السيدة تحية كاظم زوجة الرئيس جمال عبد الناصر، جمال السجيني، صلاح جاهين، فؤاد حداد، محمود أمين العالم

بدأت مجموعة من الحضور رفض ما يقوله "هاني صلاح" وهي تردد هتافات تتهمه بالعمالة والكفر والإلحاد بعد فترة قليلة استطاع مدير الندوة السيطرة على الموقف من جديد. عاد "هاني" للحديث مرة أخرى.. بدا على "منتصر الزياد" علامات الانزعاج وقف وهو يحك رأسه خلف أذنه قائلاً:

- أنتم أداة في أيدي السوفييت، فبدلاً من أن تعمل الشيوعية لمصلحة الثورة العمالية في بلداننا مصر والبلاد العربية. أصبح المطلوب منهم خدمة السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي.. رغم اعتراض مدير الندوة والتي علّل على ذلك بخروجه الندوة عن الإطار المحدد لها. رد "هاني" على "منتصر" قائلاً:

- السوفييت ينادون بحق الفلسطينيين في تقرير المصير.

ـ أي حق تتحدث عنه، وروسيا كانت مع قرار تقسيم فلسطين، وأول دولة وافقت على القرار. بل وأول دولة تعترف بالكيان الصهيوني.. هل تنكرون أن الشيوعية تنادي، بأنه لا إله لهذا الكون؟ وأن الكون مادة وتدعون إلى إلغاء الدين الإسلامي كدين للدولة وقبول الإلحاد؟.

- من قال لك ذلك نحن مسلمون وموحدون بالله، ولكنكم أنتم تسيرون على نهج الخوارج في التكفير بالمعصية، وارتكاب الكبائر وتكفير الحكام بحجة أنهم لا يحكمون بشرع الله، وتكفرون العلماء لعدم تكفيرهم الحكام، وتكفرون الشعب لأنهم لم يثوروا على حكامهم.

هذه المرة يرد "عارف يوسف" قائلاً:

- منذ نشأتكم وأنتم ضد الدين وضد الإسلام، كما قال عنكم مفتي الديار المصرية الشيخ "محمد بخيت" أن الشيوعية مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأنه تبرر ذلك بأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وتعتقدون بأنّه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب في غير هذه الحياة الدنيا.

بدت الندوة بل إدارة وزاد الهرج بشكلٍ ينبئ عن تصادم قادم لا محالة، يرد "أيمن أبو النور" قائلاً بصوتٍ بدا مرتفعاً:

- مَن يكفّرُ الكلَّ يكون هو وحده الكافر، أيديكم ملوثة بدماء المصريين منذ أن قتلتم أهل بور سعيد وأنتم تخمدون احتجاجاتهم عام **1942** حتى يرضى عنكم الملك. قتلتم قاضي الاستئناف "أحمد بك الخازندار" انتقاماً منه لإصداره حكماً بالإعدام ضد عضو من تنظيمكم السري.

هنا احتدمَ الصراعُ وخرجت الأصوات في هتافٍ واحدٍ لا إله إلا الله والشيوعيون أعداء الله، وبدأ البعض بالوثب من فوق المقاعد، للوصول إلى المنصة وقد خرجت الهراوات والجنازير والسنج وغيرها، ولكن بإشارةٍ واحدةٍ من "منتصر الزياد" توقف الجميع وهو يقول لهم في حدة:

- لم نتلقَّ أوامر باستخدام القوة.. القوة الغاشمة. ولعلّه قريب.

قالها وهو يتوعدنا جميعاً بنظرات صارمة، قبل أن يغادر القاعة ومن خلفه أنصاره. كنت أود أن أسمع ما كان سيقوله "هاني" عن تاريخ الإخوان الملوث بالدماء وحريق القاهرة وغيرها من أخبار الجماعات الإسلامية وأشياء أخرى. بعد الندوة انشغلت بالتجليد ثم بالمذاكرة وخاصة وأنا أعرف أنّها السنة النهائية والتقدير مهم للغاية من أجل تكملة مشوار الدراسات العليا.

كان "خليل" يستعد للسفر إلى البلدة لقضاء بعض الأيام من إجازة نصف العام.

لذلك أحضرت له، كتب الترم الثاني للفرقة الأولى حقوق، مع مذكرات ومحاضرات وامتحانات الأعوام السابقة. وبعض الأجندات للمذاكرة وبعض الأقلام. ولم أنسَ وضع ظرف خطاب به مبلغ من المال، كتبت عليه إلى زوجة عمي الحمد لله على سلامتك. وظرف آخر به مبلغ أيضاً كتبت عليه

من الخارج إلى ابن عمي "غالب" ألف مبارك تشريفك في شوق لرؤيتك، وضعتهم في كرتونة وسلمتها إلى "خليل" في محطة القطار مع تذكرة درجة أولى ذهاباً وعودة. وعدت إلى ورشتي التجليد لتسليم بعض الطلبيات وشراء الخامات.

بدأت الدراسة ولم أجد أيّ وقت للتفكير، أو أحلام اليقظة، رغم أني كنت أجلس في بعض الأوقات منزوياً، بعيداً هناك في ذلك الركن القديم، ذلك المكان الذي قضيت بها ما يقرب من ثلاثة سنوات، قبل أن تأتي "نجوان السعيد" وتغيرني وأطيح بهذا المارد من داخلي. مارد الصمت الذي لازمني منذ طفولتي وحتى رأيتها، كنت آخذ لحظات من الزمن هنا وأترك العنان لعقلي وخيالي للتفكير فيها

عاد "خليل" ومعه أخبار سارة قال لي:

- إنَّ أباك يبلغك السلام، وكذلك عمك "غالب" يهديك السلام، ويقول لك لماذا لم تأتِ؟ ويبلغك بأن الله رزقه بتوْءَمٍ ذكور "إبراهيم وفايز" وأن ما أرسلته من كتب وغيره يكفي، وكذلك تشكرك زوجة عمك وتبلغك السلام. وتقول لك أولاد عمك في شوق لرؤيتك أيضاً، وتقول لك اعتني

بنفسك. وإنها كانت تريد تسميه أولادها باسمك لولا أن كاتب الصحة رفض وقال اسم واحد فقط.

أخذتني نوبة من الضحك والغبطة لحظة سماعي هذا الخبر. انشرح صدري وفرحت كثيراً أن يكون لهذا الرجل الذي أعطى لنا الكثير، وأفنى عمره في خدمتنا، ذرية يستأنس بهما ويحملان اسمه وكذلك "شامية" أن يكون لها ونيساً في البيت تلهو معهما وتحدثهما. عرفت منه أيضاً أنهما يعتزمان زيارتي في أول فصل الربيع. بدأت من الآن تجهيز لعب كثيرة وملابس لكل من "إبراهيم وفايز " وأول اللعب التي وقعت عليها عيني قطار كبير، يسير على قضيبين حديديين، اشتريت اثنين. بعدها اشتريت ملابسَ وألعاباً مختلفة الأشكال، من كل واحدة اثنين، لعب تمشي وتقفز بعد ملئها من خلال النابض.

لم ينتظر "خليل " طويلاً أشاع الخبر بين زملائنا خبر زيارة أبي وعمي وكذلك خبر الوليمة المنتظرة. وجدتهم يتفقون على ندوة جديدة، وبدأت الدعوات والتحضيرات في الظهور، قلت لهم ربما لم يأتوا بوليمة، قالوا ستدفع أنت.

أخذتني الأيام والمذاكرة طويلاً قبل أن أتذكر الشيخ "محمد حسين" و "سعد العارف" وأن عليّ أن أزورهما غداً وأقضي هناك بقية اليوم حتى صلاة

العشاء.. ولكن فاجأني أبي وعمي بزيارتهما التي جاءت في منتصف مارس، ومن حسن الحظ، كان معهما الوليمة، تكفل "هاني" بدعوتهم أما عمي فقد سعد كثيراً بهدايا "إبراهيم وفايز"

مرت الأيام بطيئة وكبيئة ومملةً يوماً بعد يوم كلها متشابه من الجامعة إلى السكن، ومن السكن إلى الورشة، أو ندوة أنهكت نفسي قدر المستطاع حتى أنسى عذاب القلب. ليتني لم أرها كان في استطاعتي أن أقضي الأربعة سنوات هنا، لا أعرف لماذا سافرت هذا العام، كان يمكنني السفر إلى فرنسا مثلما حدث في العام الماضي.. الحكايات كثيرة، ورغم المعاناة مرت الأيام، وجاءت الامتحانات وبعدها ظهرت النتيجة. لم أتوقف كثيراً على عدم اختياري مُعيداً كما كنت أتوقع، على الفور بدأت في الدراسات العليا ونجحت بتقدير امتياز، وقدمت بحثي عن رسالة الماجستير الذي ظللت عاكفاً عليه عاماً مدة دبلومة الدراسات العليا والذي كان بعنوان " الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثره على المجتمع العربي بعد اتفاقية سايكس بيكو" ومن حسن حظي أن الدكتور "حامد عبد الحافظ " هو المشرف التي اختارته الكلية للإشراف على رسالتي وافق على العنوان وكنت قد قطعت أكثر من نصف الرسالة. وعقدت العزم على عام واحد، وتكون جاهزة للمناقشة

وألا يكون هناك نقطة واحدة تجعلها تؤجل، وبدأت في البحث والدراسة بكل نهمٍ وجديةٍ وعرض كلّ جديد على الدكتور "حامد" الذي انبهرَ بهذا الأداء المبهر الذي لا يحتمل أي خطأ.

عرفت من أبي أن " شامية" نجحت بتقدير جيد، وأنها سعيدة بذلك وتقول: "أنها تسير كما خطط لي الأستاذ "فايز"، يرسل لي الكتب والمحاضرات والمذكرات وامتحانات الأعوام السابقة، ويحدد لي كيفية المذاكرة والأسئلة المتوقعة. وأنا لا أفعل سوى ما يطلبه مني ويحدده، الفضل لله ثم له".

كنت قد أعددت لها كتبَ الترم الأول للفرقة الثالثة ومعها كل ما يلزمها ولم أنسَ ظرف الخطاب.. وعرفت أيضاً أن أولاد عمي في تمام الصحة والعافية. وسعداء بما أرسلته لهم من لعب.

كنت قد غبت عن حضور الندوات، عاكفاً على رسالتي، وهذه هي الندوة الوحيدة التي حضرتها في عام 79 تحت إلحاح صديقي "هاني صلاح " الذي حضر خصيصاً لدعوتي، بعد أن ترك السكن واستقر بمكانٍ ما بجوار عمله. كانت في الصالون الثقافي بساقية الصاوي. أبهرني عرضه الرائع والمنظم والذي جعل من مناظره الخروج عن المألوف. واتهامه بأنهم يعيشون حياة البزخ من

الأموال المتدفقة عليهم من الخارج. أعجبني رده على هذا الاتهام كما أعجب تأثر كل الجمهور الحاضر، والذي ظل يصفق طويلاً. حيث قال:

- أنا والحمد لله أنهيت دراستي في كلية الفنون الجميلة، وحصلت على دبلومة الدراسات العليا، والآن في مشروع الماجستير. لم أتلقَّ قرشاً واحداً من أحد سواء في الداخل أو الخارج. وأتحدى من يقول غير ذلك، أنا أعمل يا سيدي الفاضل وأنفق على تعليمي وأساعد مع والدي على تعليم وتربية إخوتي.. ما عليك إلا أن تسأل عن شارع "عبد المجيد سليم" بكوبري القبة وعن بقالة "أبو خالد" بالقرب من فيلا الفنان "محمود شكوكو" ستجدني أعمل في هذه البقالة لمدة عشرة ساعات يومياً.. أما سكني هو عبارة عن غرفة واحدة، في منزل مكون من دورٍ واحد به سبعة غرف، تُفتح أمام بعضها. لا يفصلها عن بعضها سوى ممرٌ ضيقٌ حوالي متر واحد أو يزيد قليلاً ينتهي بحمام مشترك للسبع غرف. وعنوان سكني يا سيدي منزل "كرم" القابع بشارع "توفيق رشوان" بجوار مسجد الشيخ حسان القريب من القصر الجمهوري.

مرّت الأيام رغم كآبتها ومرارتها، وكوابيس العرافة التي لا تفارقني ليلة واحدة. ووجه " شامية " الذي يحفزني دائماً على كسر روتين الحياة. حدث قبل أن أنتقل إلى شقتي الجديدة وأترك سكني هذا والذي غادره كل زملائي، وبقيت وحدي. مَن أنهى دراسته ومَن انتقلَ إلى مكانٍ آخر بجانب عمله. ليلتها لم أنم طويلاً. أظنني استيقظت في حوالي التاسعة شعرت بجوعٍ شديدٍ. آخِر مرة أكلت فيها كانت عندما تناولت سندوتش. كان هذا في الصباح. نهضت من السرير وعزمت أمري أن أتناول عشائي بالخارج. نظرت من النافذة قبل مغادرتي الغرفة. لأرى ما في الشارع. وأنا أغلق باب الشقة وجدت جارتي الجديدة، كانت تقف أمام شقتها المفتوح بابها. وكانت خفيفة الظل معي. وكان عليّ أن أعي الحقيقة من قبل ذلك. " سألتني" " هل معك ساعة؟".

ثم توقفت فجأة وجذبت ثوبها في اتجاه رأسها. أحسست بشعور غريب حين فعلت ذلك. إذ فعلته بشكلٍ مفاجئٍ.

أنا أعلم أنه مفروض أن تهتاج عندما تنهض فتاة وترفع ثوبها عن جسدها. ولكنني لم أشعر بأية رغبة. كانت الرغبة هي آخر شيء أحسست به ساعتها، تولاني شعورٌ بالضيق.

- هل معك ساعة حقاً؟! هاااي! أين ذهبت.

- لا ليس معي.

كنت أشعر باستغرابٍ شديدٍ. لم تكن ترتدي شيئاً تحت ثوبها، حتى حمالة الصدر لم تكن ترتديها. كان ذلك مربكاً للغاية، حقاً لقد كان كذلك.

-قالت: ألا ترغب في أن نتحدث قليلاً.

-قلت: لا... أرفض الحديث معك.

نظرت نحوي، وكأنّها تنظر إلى مجنون، وكأنها هي التي تستغرب فعلي.

-قالت: لماذا ترفض؟! ألا يوجد عندك حتى سؤال مجرد سؤال؟!

فكرت أن أسألها كيف أصبحت مومساً، ولكنني خفت. أغلب الظن أنها لم تكن تخبرني على أية حال بحقيقة الأمر. في النهاية لا أعتقد أن أحد هنا في العمارة يعرف أنها مومس والأرجح أن الجميع يظنها فتاة عادية. وهذا ما يجعلني حزيناً للغاية لسبب لا أدريه.

وقبل أن أنصرف، رمقتني بنظرة باردة، قبل أن تقول بسخرية وضحكاتها تجلجل وتطوي المسافة نحوي:

- هههههههه... لم أكن أعرف أنك مثليّ؟!

في اليوم التالي كنت أنقل أغراضي إلى شقتي الجديدة بميدان المساحة بالدقي والتي اشتريتها تمليك قبل شهر وكنت أعمل بها بعض التجديدات. مرَّ

شهران على ما أعتقد على هذه الواقعة وحتى صباح هذا اليوم الأحد، لا يفصلني سوى أربعة وعشرون ساعة عن الموعد الذي حددته اللجنة المختصة لمناقشة رسالة الماجستير الخاصة بي وهو غداً الاثنين الموافق الثامن من يونيو عام **1981** ميلادي. الموافق السادس من شهر شعبان عام**1401** هجري.

لم تذق عيناي النوم بالأمس من الخوف والقلق، رغم أنني أعرف كل كلمة في الرسالة، وأعرف أكثر من الرسالة بكثير. حاولت البحث كثيراً عن سبب هذا الخوف والقلق في النهاية تركت نفسي لتذكر أشياء بديلة. جاءت زيارة أبي الأخيرة قبل شهرين من الآن في سكني القديم. أخذته معي إلى هناك. كان العمال يباشرون أعمال التجديدات، بعد أن لف كلّ ركن في الشقة الجديدة. قال: " الشقة كبيرة تزيد على مئتي متر بها أربع غرف كبيرة وصالة استقبال كبيرة ومطبخ وحمامان، وتقع على ناصيتين، المكان حولها جميل ونظيف. ولكن كم المبلغ الذي دفعته يا فايز؟ " .

ابتسمتُ وأنا أذكر له نصف المبلغ المدفوع فقط، لحظتها اندهش أبي من المبلغ، وقال "أنه مبلغ ضخم يساوي نصف ثمن بيوت بلدتنا أو يزيد " .

ظللت هكذا طوال النهار والليل. لا أعرف متى نمت ومتى استيقظت ومتى أكلت ظلت العرافة ولجنة المناقشة وشامية وعرب وذاكرتي تنتقل بي من حالة إلى أخرى حتى رن جرس الباب. وحين وجدت أبي وعمي ذهب الخوف والقلق وكأن شيئاً لم يحدث. كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً، دخلت الحمام توضأت وصليت. كان عمي "غالب" قد أعد الفطور. بعدها خرجنا أخذنا تكسي إلى الجامعة، طول الطريق وعمي يشدد من أزري ويشجعني حتى وصلنا، كان جميع أصدقائي حتى الأستاذ "نعمان حمدي " الذي أدار لنا ندوة منذ زمن بعيد في جمعية الشبان المسلمين جاء مع آخرين. في انتظاري أمام القاعة، وكذلك أقاربي من البلدة ما أبهجني وأسعدني هو حضور الدكتور "عامر السعدي" الأستاذ المساعد بكلية الطب جامعة الإسكندرية. علمت من عمي سابقاً أن "السعدي" قد انتقم من كلّ من شارك في واقعة عين "عامر" أشد الانتقام، وأنه تخصص في أمراض البطنة وأن عيادته في البلدة يأتي إليها المرضى من كل البلاد والكفور المجاورة وحتى البعيدة. كان أيضاً بانتظاري أمام القاعة، ما أن رآني حتى أخذني في حضنه طويلاً، وبارك لي مسبقاً وقال:

- "لم أرك منذ تلك الواقعة أتتذكرها "

- قلت: "نعم ومن ذا الذي ينساها ولكني لم أزر البلدة من بعدها ". لحظتها بكى قلبي وبكت كل جوارحي حين تذكرت هذا الوجه السماوي هذه المخلوقة البديعة "شامية" التي لم أرها منذ ذلك اليوم يوم الجمعة النصف الثاني من شهر فبراير من عام **1977**.

وحين بدأت اللجنة وبدأت بقراءة أجزاء من رسالتي، كان الكل ينصت وعبارات الشكر تنهال عليّ من السادة أعضاء لجنة المناقشة، الأمر الذي جعل الأستاذ الدكتور "حامد عبد الحافظ " يقول "أن "فايز سلطان" وردة من باقة زهوري وأنه سيكون له اسماً لامعاً وسط تلاميذه، وكذلك على المستوى الدولي". ساعات وأعضاء اللجنة يسألون وأنا أجيب والقاعة في صمت. حتى أعلن رئيس اللجنة النتيجة قائلاً: "ناجح بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف". هاجت القاعة بين مهنئٍ ومصفقٍ ومكبرٍ. ولكن ما قام به عمي "غالب" من فرح عارم وتصفيق وابتهال وتكبير قد فاق الجميع، وجعلهم فقط مشاهدين لما يقوم به من رقص وفرح كبير.

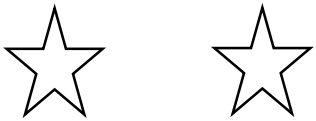

تلةُ الغجرِ
الفصل العاشر

البحيرة تمور مياهها بدوامات كثيرة وعميقة، بينما الدوامة الرئيسية والأكبر تدور مياهها بسرعة مخيفة، تجذب الأخشاب وكل شيء في نطاقها حتى الدوامات الصغيرة تلتهمها. بينما "غالب" يحاول في هذا الموج الصاخب الخروج قبل أن تصل إليه وتأخذه، يضرب المياه بعنفٍ يحاول الابتعاد، يسمع صدى لهاثه، بينما ثعبان ضخم لم يرَ مثله من قبل، يقترب منه ويدفعه نحو الدوامة التي تلتهم كل شيء. و"غالب" يحاول الابتعاد ينظر عن يمينه ويساره لعلّه يجد شيئاً يتشبث به، يرى من بعيد أمه وأبيه على الشاطئ، تناديه يا "غلباوي" الاسم التي كانت تحب أن تناديه به بينما الأب يمد له فرع شجرة كبير، يحاول بكل قوته الوصول، يضرب الماء بسرعة من أجل الوصول إلى الفرع الممدود، اقترب منهم ولكنهم اختفيا. يقترب منه الثعبان يلتف حول وسطه، ويجذبه بعنفٍ نحو الدوامة، يناديهم يخرج صوته يشق الفضاء، ثم ينقلب نداءه إلى استغاثة، لا تلبث أن تصير صراخاً يتردد صداه في الكون..

توقظه "شامية" من نومه منهكاً يتصبب عرقاً، وهو ما زال يضرب الهواء بذراعيه ويصرخ، تجذبه نحوها يتشبث بها، تهزه تمسح بيديها على خديه ورأسه وهي تقول في هلع ورعب:

- بسم الله.. بسم الله الرحمن الرحيم.. قل أعوذ برب الفلق.. اصحَ... اصحَ يا "غالب " يا "أبو إبراهيم".

ينظر إليها غير مصدق يتحسس نفسه، يهرول ناحية "إبراهيم وفايز" يغطان في نومٍ عميقٍ يقبلهما، يعود مترنحاً إلى فراشه، تأتي إليه بالماء يشرب في نهم كمسافر ضلَّ طريقه، ظلَّ ليلته ساهراً حتى أذن الفجر، خرج للصلاة لم يتحدث مع أحد، ولما عاد لم يأخذ عربته ولم يذهب إلى الأرض كما اعتاد من قبل، ولم يدخل المنزل جلس على المصطبة الطينية بجوار البوابة عند المنحدر ينظر هنا وهناك. كانت قد أعدت له الفطور ومتطلبات أخرى، وجلست تنتظره لكنه لم يأتِ، فتحت الباب وهبطت إلى الحديقة وجدت العربة مكانها. هرول "فهد" نحوها يتمسح بجلبابها. سارا معاً حتى وصلا إلى البوابة ما زال "رعد وفهد" يتمسحان بعباءتها ويهز كل منهما ذيله في ود. كان هناك يجلس على المصطبة الطينية التي تمتد من البوابة حتى المنحدر، نادته مرة... مرتان لم يحرك ساكناً، جلست بجواره، " رعد وفهد " يشمان الأرض تحت قدميه، أفاق من شروده نظر إليها كانت الشمس تشرق في عينيها الخضراوين وانعكست أشعتها الأرجوانية فبدت كملكة فرعونية.. خرج عن صمته، غادره حلمه. صاح في تعجب وكأنه لم يرَها من قبل:

- يا الله ما أبهاك وما أجملك وما أروعك يا شامية!!

لم تصدق أذنيها نظرت إليه في دهشة!! تتأكد أنها في كامل صحوها، وأنها ليست نائمة. أيكون ما سمعته حقيقة، أم هو الحلم، أهو "غالب" حقاً غير معقول.

علت الشمس تخللت أشعتها الذهبية فروع الأشجار، غادرته لحظة الانبهار. تذكر غرس البذور في آخر قطعة أرض استصلحها، نهض على الفور أخذها من يدها حتى دخلا الحديقة، علق ماكينة الري الكبيرة في مؤخرة العربة وضع أيضاً فأسه وأشولة البذور وجركنان الماء، ثم علق الحمار بالعربة. تعلق "فهد" بملابسه يأخذ "رعد" ويربطه، يجري ويحاول القفز في العربة، تجذبه السلسلة بشدة من عنقه يحاول الكرة مرة أخرى، ولكن السلسلة تقف له بالمرصاد .. عادت تحمل بين يديها صينية كبيرة بها أطعمة كثيرة في أكياس وأواني متوسطة الحجم وضعتها في العربة. ترك كل شيء في يده وكأنه تذكر أمراً غاية في الأهمية. هرول ناحية غرفة "إبراهيم وفايز"، حاول إيقاظهما حتى نجح في ذلك، تعلّق كلٌّ منهما في رقبته. قبلهما في نهمٍ، ولكن النوم سلطان، بعد أن وضع قبلته على خد كل منهما كانوا قد راحوا في نومٍ عميقٍ، وكأن ما حدث كان حلماً، ألقى عليهما نظرة أخيرة. لما خرج كانت "شامية" قد انتهت

من وضع الأطعمة، أخذها من وسطها احتضنها في هيام وشوق قبلها من شفتيها ومن خديها قائلاً:

- ما أبهاك وما أجملك كيف لم أرك من قبل؟!!

لم يعطها فرصة للكلام وقبل أن تفيق من دهشتها كان قد انطلق بعربته ومن خلفه "فهد" أما "رعد "حاول أن يعدو ولكنه توقف عند البوابة منعته السلسلة من العبور. انطلقت "شامية" تعدو خلفه كان الحمار يركض بسرعة حتى ينجح في اجتياز وصعود المرتفع. و"غالب" يدفع العربة من الخلف بينما ماكينة الري ذات العجلتين الكبيرتين تسير ببطءٍ عند قمة المرتفع و "فهد" يخبُّ في الأرض يشم هنا وهناك ثم يعدو صاعداً خلفه.. تقف على المصطبة الطينية تشب برأسها حتى تراهم هناك يقف الحمار حيث يركب "غالب" على كرسي العربة وينطلق بها من جديد.

جلست على المصطبة بالخارج تفكر وتحدث نفسها في دهشة "ماذا حدث "لغالب" أربعة أعوام لم أسمع منه كلمة واحدة. هل ما سمعته حقيقة، أم تخيلات وأمانٍ سكنت داخلي. ولكنه احتضنني وقبلني وما سمعته منذ قليل حقيقة لا شك في ذلك. ولكن ما هو سر هذا التغير المفاجئ، أيكون حلمه هو السبب؟؟ نعم هو السبب، هذا الكابوس الذي هاجمه في نومه، وجعله

يصرخ وينادي أمه وأبيه. ولكن لماذا؟! أمه وأبيه وأنا أنام بجواره، لماذا لم ينادِني؟!. ولماذا؟! يناديهما وهما أموات منذ زمنٍ بعيدٍ؟؟ هل رآهما في حلمه؟ ولماذا هما إذاً وليس أخوه "سلطان" أو "فايز". انتفض قلبها فجأة كطائر مذبوحٍ، تخرج من تساؤلاتها، من حلم "غالب " إلى حديث آخر ومكان آخر. تبكي وتئن وهي تقول في نفسها:

"أعرف ما تعانيه وما تتحمله. يفوق قوى البشر، لم يُخلق بعد من هو في شهامتك وكرمك يا "فايز" كنت في أضعف حالاتي وكنت على أتم الاستعداد أن أعطيك نفسي بكل حب وشوق، كنت تستطيع في لحظات ضعفي أن تفعل ما تشاء ولكنك أبيت. حتى أكون عفيفة وشريفة وغير ملوثة. تعطي للجميع دون كلل أو ملل. تدعو لك أمي باستمرار كلما وصلها ظرف خطابك تقول لي: "نفسي أراه. وتسأل عن عدم نزولك إلى البلدة ومن السبب في ذلك". يبكي قلبي في مرارة أمامها تبكي كل جوارحي، هل أقول لها أنا السبب؟ أقول لها مشاغله كثيرة، تقول: "من يصدق أنك هذا العام وتخلصي الجامعة. الفضل له هو من جعلني أفتخر أمام الدنيا كلها أن ابنتي سوف تصبح محامية بل أول محامية في المنطقة كلها. أصبح الناس ينادونني أم المحامية، ليس هذا

فقط بل وجعلني أجلس في بيتي في عزة وكبرياء، بدل البهدلة في الأرض عند الغرباء، ربنا يستره دنيا وآخرة".

يوم وصلتنا الدعوة لحضور مناقشة رسالة الماجستير والتي أخذتها بامتياز ومن بعدها قرار تعيينك مدرساً مساعداً في الجامعة، لم تسعنِ الدنيا من الفرحة والسعادة. ذبح عمك "غالب" عجلاً كبيراً كان قد جعله لهذه المناسبة، وزّعه على كلّ البلدة. ووزعت أنا الشربات، لفت الصواني كل بيوت البلدة. يومها رأيت الحزن والغيرة ينهشان قلب "عرب" مثلما أراها الآن في عين "هنادي" زوجة أخي وقد تخرجت بتقدير جيد جداً وخلال أيام سوف أستخرج كارنية النقابة. نقابة المحامين.

ولكني أعرف سبب كراهية زوجة أخي أما "عرب" لماذا تكرهك؟! أوقات كثيرة أريد سؤالها، ماذا فعل لك فايز؟ لماذا تكرهيه ؟!. عمك يقول أنّ جسدك ما زال يحمل علامات ضربها. عمك ليلة الأمس لم ينم.

تتذكر تعود ثانية إلى حلم "غالب" وتساؤلاتها وحيرتها التي لم تنتهِ.

" الحلم، صراخه لماذا لم يذهب بعد الصلاة كعادته إلى الأرض؟ لماذا لم يدخل المنزل؟ ولماذا جلس هنا في الخارج ؟ وأي حلم هذا ".

الشمس ملأت الأفق وهي مازالت تجلس مكانها تحدث نفسها وتطرح الأسئلة ولكن دون إجابة، وهي ما زالت في حيرتها سمعت نباح "رعد" وصراخ "إبراهيم". هرولت ناحيته. كان يريد الخروج من البوابة و"رعد" يعترض طريقه ويمنعه من الخروج. أخذته في حضنها وربتت على ظهر "رعد " دخلت وأغلقت البوابة خلفها، لم تدخل المنزل بل جلست تحت سقيفة العنب، تتعجب أي حلم يستطيع أن يفزع "غالب" إلى هذه الدرجة! كان يصرخ بحرقة وينادي أمه وأبيه. تتعجب لماذا ينادي الأموات ؟! تسمع صوت "فايز" وهو يبحث عنها بالداخل. "إبراهيم" يلعب مع "فهد" بجوارها. أخذته من يده وصعدت الدرجات قابلها "فايز" ارتمى في حضنها تقبله وتسير أمامهما وهما من خلفها يأخذ "فايز" بيد "إبراهيم" بينما "فهد" يطيح بالكرة هنا وهناك، وينتظرهما بالخارج بجوار السقيفة.

تفرش الحصير تضع طعام "فهد" ثم تعود بالإفطار و"فايز" يمسك بيد "إبراهيم" وكل منهما يحمل قطاره.. تقول لهما في ود "نأكل أولاً ثم نلعب ". تضع الطعام في فم "فايز" ثم "إبراهيم"، أما "فهد" يأكل ويهز ذيله في فرح، تضع الطعام في فمهما وعقلها هناك عند "غالب" وكلماته الرقيقة العذبة الذي قالها وللمرة الأولى. تسأل نفسها. " هل يكون الكابوس سبب كلماته؟ لم يصدق نفسه أنه

مازال حياً وأنه كان يحلم أخذ ينظر حوله ثم هرول ناحية أولاده. وفي الصباح قبل أن يذهب لم يتركهما حتى عانقهما وكأنه يودعهما. يودعهما!!! ضربت الكلمة تجويف القلب والعقل، هل... هل... لا...!! "رعد " ينقض على القادم الذي دفع البوابة وتوقف في منتصف المسافة أنها "تباهي" المرأة العجوز يفصلها عن" رعد" نصف متر أو أقل، تجذب "شامية" السلسلة وتناديه وتأمره في حزم أن يبتعد، تدخل مرفوعة الرأس مقوسة الظهر تحاول جاهدة السير برشاقة لا تتناسب وسنها وقوامها المحني، تحمل إناءً على رأسها تضعه أمامها قائلة:

- عرب بتسلم عليك، وتقول لك هذا الزبدة لكم من الأسبوع الماضي

تلتفت ناحية الطعام ثم إلى " رعد" المتحفز ثم تتابع كلامها:

- أنتم تأخذون أسبوع وعرب أسبوع؟!.

- لا يا حاجة أم رياض هي تحلب البهائم ثم تصنع الجبن والزبدة وترسل لنا ما يخصنا.

اجلسي هنا كلي واشربي، وأنا سوف أصل إلى أبو إبراهيم نسي الشاي والسكر وعنده عمال، فقط اعتني بفايز وإبراهيم وأنا مسافة الطريق وأرجع.

- حاضر يا ست الستات من عينيّ لا تخافي.

تجلس بسرعةٍ تمدُّ يدها نحو الأطباق تلوك الطعام بسرعةٍ، تنظر في خوف ناحية "رعد" الذي يرمقها بنظرة صارمة. يقف بالقرب منها وينتظر الأوامر حتى يفترسها.. تقوم " شامية " تحمل الإناء إلى الداخل.

يشاكسها " فايز " يأخذ طبق المربى من أمامها، تجذبه من جلبابه قائلة:

- يابني حرام عليك أنت مثله؟ مثل ابن عمك، هات أنا على لحم بطني من يوم أو أكثر.

تأخذه منه ثم تشير له ناحية " إبراهيم " قائلة:

- انظر " إبراهيم " يلعب مع " رعد " اتركني مع الأكل والعب مع أخيك.

تخرج " شامية " تحمل حقيبة كبيرة في يدها ثم تغلق الباب، وتضع المفتاح في الحقيبة وتهبط السلم تقول "لتباهي":

ـ يا حاجة الأكل عندك وأنا مسافة الطريق وأعود، عينك على فايز وإبراهيم.

ـ خذي وقتك يا غالية هما في عيني.

تنادي " رعد " يأتي مسرعاً يحتك بها يحاول الخروج معها ولكنها تأمره بشدة ونفاذ صبر:

-اجلس هنا لا أحد يخرج أو يدخل حتى أعود.

وتشير له إلى المكان. يهز ذيله، ينفذ الأمر وهو يسير خلفها تخرج وتغلق البوابة. تصعد المنحدر تسير على أول الطريق المتعرج المؤدي إلى أرض البراري، تنظر هنا وهناك، لا ترى أحداً قادماً أو ذاهباً على الطريق.. تسمع المؤذن يؤذن لصلاة الظهر في المسجد القريب، الجو قائظ ولهيب الشمس يخترق الرؤوس. تمشي بردائها الطويل الذي يجر في الأرض خلفها حاملاً معه بعض القش، شعرها الأسود الطويل يسير خلفها خائفاً مرتعباً يطل من تحت غطاء رأسها يحاول أن يسكن على ظهرها ولكنها تأبى بتحركها السريع المستمر هذا، بياض وجهها يضوي يتحدى ضوء الشمس، عيناها الخضراوان تتفحصان المكان في حذرٍ وترقبٍ. تتفحص ما حولها، كلما سارت أو قطعت مسافة، في خوفٍ وحذرٍ شديدٍ تلتفت لترى من خلفها وكأن هناك من يتبعها.. الشمس تدنو من الرؤوس وزراعات الذرة حولها تحجب كل شيء عن اليمين واليسار.

تقف صامتة لا حراك إلا من حسيس تصدره أوراقها الجافة.. تطمئن نفسها أن الكل يعرفها ويعرفون أن "غالب " زوجها والكل يخشاه من ذا الذي يستطيع أن ينظر نحوها، تسير في البلدة وعلى الطريق السريع أيام الامتحانات والكل يتحاشى النظر إليها خوفاً منه.. هي الآن اقتربت منه يستطيع أن يسمع

صوتها إذا صرخت تستغيث به في لحظات سيكون هنا.. عند آخر الطريق الضيق تبدأ أرضه التي يغرس بذورها الآن، تطمئن نفسها أكثر أنها الآن تسمع صوت ماكينة الري بوضوح، تحمد الله أنها اجتازت حقول الذرة.

وبدأت حقول الطماطم والريحان والنعناع تعطر أنفها، من بعيد تسمع صوت نايه الحزين يوزع نغماته الحزينة، فيثير أشجانها ويُخرج آهاتٍ محبوسة في أقاصي القلب. تحدث نفسها " لعلّه ما زال يذكر حلمه فيخرج حزنه وخوفه مع نغمات نايه الحزين، التي ما أروعها والتي توصلني حد البكاء كلما سمعتها. أوقات كثيرة يخرج ليلاً يجلس تحت سقيفة العنب ويعزف طويلاً يملأ الدنيا حوله شجناً.

تنادي:

- غاالب.. يا غاااالب.. يا أبا إبراهيم

يتوقف الناي عن إخراج حزنه يخرج من الكوخ يطل برأسه جهة الغرب حيث مصدر الصوت. يراها قادمة يهرول ناحيتها، تشاهد من بعيد الخوف في عينيه. تطمئنه:

ـ لا تخف الأولاد بخير و" تباهي " معهم، قلت أطمئن عليك، وأتناول الغداء معك.

يحملها بين ذراعيه وهو يقول:

ـ يا ألف مرحباً نورتِ الدنيا، نورتِ حياتي وآنستي وحشتي

تضحك وهي تقول:

ـ لا أنزلني يا غالب عيب حد يرانا

ـ حد من؟ أنت زوجتي وأم أولادي ونور عيني

ـ إيه الكلام الجميل ده يا أبو إبراهيم

تنزل من بين ذراعيه وتسير ببطءٍ نحو الكوخ، تقف عند الباب تنظر إلى هذا الجمال الرائع وتتفحص الكوخ عبارة عن حجرة كبيرة حوالي أربعة أمتار في ستة أمتار له باب ضخم يتسع لمرور شخصين متجاورين وله شباك بقضبان حديدية. يطل على كل جهة من الجهات الأربعة، ارتفاعه يزيد قليل عن الثلاثة أمتار. تقول " هو ليس بكوخ ".

تعود وتتفحص المكان مرة أخرى.

بابه يقع في الناحية البحرية .اصطفت أشجار الفاكهة من حوله، تقف شجرة العنب أمامه ثم تمتد إلى أعلى فوقه وقد صنع لها أوتاداً عالية وسقيفة حتى يرفع عناقيد العنب فلا تلامس سطح الكوخ وتتعفن، تلمح عناقيد العنب بحباتها الكهرمانية.. وبجوار شجرة العنب يوجد زير مياه، وقد صنع له سقيفة

تجعل الظل أمامه باستمرار، حوله اصطفت أشجار الجوافة والبرتقال والليمون أما من ناحية الغرب على مسافة ليست بعيدة عن الكوخ زُرعت على مسافات متباعدة ثلاثة شجرات توت بأوراقها الكبيرة الخضراء تتلاحم أغصان الشجيرات ببعضها البعض حتى تمنع وصول الشمس، وتغرق الكوخ في ظل طوال النهار، قبل شجيرات التوت ثلاثة نخلات سيوي من النوع القصير، تستطيع أن تأكل بلحها الرطب وأنت واقف أو وأنت جالس تحتها، ما عليك إلا أن تمد يدك . وبين النخلات زُرعت أعواد النعناع **0** تلف "شامية" حوله وتصل إلى الجهة القبلية والتي تطل على الطريق لم يزرع بها أشجار، ليكشف الطريق ويرى القادم، ولكنه زرع أشجار الفلفل والباذنجان والكوسا وهناك مساحة صغيرة زُرعت ملوخية، أما الجهة الشرقية زُرعت أشجار المانجو والتفاح والبرقوق إلى جانب بعض عروش الشهد والخيار.. تقول في فرح حقيقي بصوتٍ مسموعٍ:

ـ يا الله ما أروع هذا الجمال!! وما أدق هذا النظام وهذا التنسيق!! أنت الذي صنعت كل هذا الجمال! كم أنت فنان ماهر! كل شيء مدروس بعناية حتى يظل هذا الكوخ بعيداً عن شمس الصيف وتغمره الظلال من كل مكان، وهذه

الشجيرات ليست شجيرات ظل وحسب بل هي مثمرة وتعطي الظل والثمار والشكل أيضاً، ما أروعك يا غالب

يضحك ويقول:

ـ كل هذا سهل، الصعب هو استصلاح الأرض والتي تحتاج إلى عمر نوح وصبر أيوب ومال قارون حتى تعطي الثمار وتفرح القلب، وأشد ما يحزنني أنهم يزرعون أشجار الفيقس والبوتسيان في المدن في الحدائق العامة والشوارع يمكنهم زراعة أشجار الفاكهة بحيث تعطي الثمار والظل والشكل، والمحزن أن الناس هناك تحتاج. من عنده مال يشتري والفقير يكتفي بالنظر فقط، كان يمكنه أن يجلس في الحدائق ويأكل الثمار. ليست الحدائق فقط بل من أمام بيته

ـ هذه فكرة رائعة لو تم تعميمها في كل مدن مصر، وشوارعها لأكل الناس وصُدّر الفائض إلى الخارج، ما أروع أفكارك

تقول ذلك وهي تدخل الكوخ وسعادة واضحة تظهر على وجهها، يتسلق غالب الحائط ويأتي بثلاثة عناقيد عنب، تستغرب طول وحجم العنقود الواحد الذي يفوق وزنه الكيلو جرام تضعهم في طبق كبير وتغسلهم

تسأله في ودٍّ وهي تبتسم:

ـ لمن هذه الأطباق والأواني هي ليست لنا

ـ هي لأم سيد هذه المرأة العجوز، التي تأتي مع الأنفار، تعد لهم الطعام، يأتون مع الشمس ويعودون مع غروبها، بلدتهم هناك على مدِّ النظر، هل ترين هذه منازلهم، هناك

يأخذها من يدها ويشير بأصبعه ناحية الغرب

تسأله في استغراب:

ـ هل يأتون بطعامهم ؟

ـ لا تشتري أم سيد ما يلزمهم من طعام وشاي وسكر، وأنا أدفع لها ثمنه

ـ لماذا لم تقل لي وأنا أجهز الطعام وأحضره لكم

ـ يكفيك أنفار البلدة وبيتك وأولادك ودراستك لو كان بيدي لجعلتك لدراستك فقط وقمت أنا بعمل كل شيء، لكنك دائماً ترفضين

هل تعرفين قبل أن أتزوجك كانت عرب ترفض إعداد الطعام متعللة ببعد المسافة وحتى لما كان سلطان يضغط عليها، كانت مرة تأتي وعشرة مرات تتعلل بأنها وقعت في الطريق هي والطعام، فكنت أذهب وأحضر طعام غيره ويضيع الوقت، حتى جاءت أم سيد تعمل مع الأنفار وهي امرأة كبيرة عرضت

عليها الفكرة ووافقت، قلت لها فقط عملك أن تحصي عدد الأنفار تشتري ما يخصهم من الخبز والجبن والطحينية وبعض الخضار

ـ وماذا تأخذ في المقابل؟

ـ تأخذ أجرة عامل

ـ لكن عندنا يأخذ العامل طعامه

تتذكر أمها وسالم تحبس دمعة كادت تفر على خديها.

يقول لها:

ـ أعرف ذلك، ولكن هذه اللقمة التي يأكلها عامل، يعمل طول النهار هي التي نأخذها في هذه الدنيا أقصد الثواب من الله سبحانه وتعالى، غير ذلك يترك هؤلاء العمال العمل في أرض الغير ويأتون للعمل هنا في أرضنا.. ويقول رسولنا الكريم: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "

ـ ما أرحمك وما أجملك يا غالب أدام الله عليك صحتك وحكمتك.

تتجول بعينيها في المكان تستغرب من البساطة والدقة وقوة الأحكام، رغم البساطة فهو أشبه بقلعةٍ حربيةٍ، بابه من الخشب القوي المتين كل شباك به قضبان حديدية يمنع دخول أي متسلل مهما كان حجمه. ومن الخارج وضع سلك الناموس حتى يمنع دخول أي زواحف. أما الداخل هناك مصطبة أشبه

بسريرٍ عليها مرتبة من قش الأرز ووسادة، أما بقية المساحة وزعت بين مساحة، فرش عليها حصير كبير. وفي الركن البعيد من ناحية الطريق تم بناء موقد للطهي، ورف صنع من الطين للمبة الجاز

تقول وهي مازالت مندهشة:

ـ هل أنت الذي بنيت هذا الكوخ، وزرعت ما حوله بهذا التنسيق الهندسي الرائع

ـ نعم يا شامية أنا وهل ستستغربين حين تعرفين أنني الذي بنيت البيت الذي يسكنه سلطان، وكذلك بيتنا وقد اخترت هذا المكان بعناية، وحين اشتريت الأرض كان سلطان غير موافق وكثير من الناس، كان يقول مكان مقطوع وأرض غير مستوية ولكن لما بنيته وزرعت الحديقة كادت عرب أن تجن وتسكن فيه

ـ وأين تعلمت البناء ؟

ـ تعلمت البناء وأنا في العاشرة من عمري مع المعلم رشدان، عشرة سنوات أو يزيد وأنا أبني هنا وهناك، كلّ بيوت الكفور عملت بها.

بعد حرب اليمن توفي أبي. وسلطان لا يعرف شيئاً عن الفلاحة وزراعة الأرض كان يتاجر في المواشي والغلال. تركت البناء بدأت أنا في العمل في

الأرض ويوم وراء يوم عشقتها لدرجة أنني لا أستطيع البعد عنها كان أبي قد ترك لنا فدانين أرض بجوار الوحدة الصحية وفدان واحد جنوب هذا الطريق بجواره أربعة أفدنة للحاج صادق جد فايز. ولما تزوج سلطان من نادية ابنته. وكبر سنه كتب لها الأرض بيع وشراء. كان يخاف من إخوته. لم يكن عنده أولاد ذكور. ولما توفي أخذت أم فايز هذه الأفدنة الأربعة والحقيقة أنها أخذت هذه الأرض في حياته. وكنا نزرعها ندفع له الإيجار. استصلحت أنا المساحة المقابلة لها. أي الخمسة أفدنة هذه. وهذه الأرض تم تخصيصها من وزارة الزراعة واستصلاح الأراضي بعقود رسمية لنا.

تسأله:

- وعقود أرض أم فايز باسم عمي سلطان

- لا باسم فايز، وأرض فايز

ـ لكن عندما توفيت أمه كان صغيراً، لا يمكن كتابة عقود باسمه لأنه قاصر وعمي سلطان يكون وصياً فقط

ـ هذا صحيح ولكن بمجرد أن استخرج بطاقته ووصل إلى السن القانوني ضغط على سلطان رغم رفض عرب التام أن يرفع الوصايا ويكتب العقود باسمه وكان هذا منذ مدة بسيطة

تتجه " شامية " إلى مكان الطهي تأخذ بعض الحطب حتى تعد الطعام. يجذبها "غالب " من ذراعها وقد أشعل لها موقد الكيروسين يضحك وهو يقول:

ـ هذه العيون الساحرة حرام أن يصل إليها دخان الحطب

تضحك هي الأخرى وتقول:

ـ تسلم

نام الطفلان تحت سقيفة العنب، أما " تباهي " ما زالت تحاول الخروج من البوابة فيمنعها " رعد". لما أصرّت على الخروج زمجر ووثب نحوها ألقت بنفسها بعيد وأسرعت تحبو على يديها وقدميها حتى ابتعدت عن مدى السلسلة بخطوة واحدة.. وقف أمامها ينبح بقوة والزبد يتطاير من فمه يحاول التملص من السلسلة يرفع قدميه الأماميتين ويحاول الوثب نحوها فتمنعه وتجذبه إلى الخلف، فيعود ويكرر المحاولة، وهي تقف تعرف آخر مدى يمكن أن تصل إليه السلسلة. تمشي أمامه على خط مستقيم لليمين ولليسار ، تبحث عن أي منفذ واحد تخرج منه، و" رعد" يمشي أمامها أيضاً على خط مستقيمٍ، حتى جُنَّ جنونه وهي مازالت تستفزه بالسير أمامه، يحاول الوصول إليه تمنعه السلسلة، تحاول أن تشتت انتباه ولكنّه شديد التركيز معها، ولما نفد صبره

تركها تفعل ما تشاء، نبح قليلاً ثم سار بسرعةٍ ناحية البوابة وجلس في منتصفها تماماً والبوابة خلفه مغلقة، ينظر إليها وهي تستحثه قائلة:

ـ قلت لك نصف ساعة وأعود، والأولاد نائمون وأمامهم وقت طويل حتى يستيقظا اتركني.

ينظر إليها ويخرج لسانه. يجنُّ جنونها تأخذ حجراً وتقذفه، تأخذ حجراً آخر وتتجه ناحيته تقترب منه يتأهب، تعود وتكرر المحاولة في كل مرة كانت تنجو منه بأعجوبةٍ وهي على بعد سنتمترات حتى أعيتها المحاولات فاستسلمت بجوار الطفلين ونامت.

جمعت ما تبقى من طعام في الأطباق، ثم وضعته على طاولة خشبية بجوار الحائط. أخذت عنقوداً من العنب وبدأت في وضع حبة بعد حبة في فمه وهي تقول له في ودٍّ:

- اِحكي لي عن حلمك الذي أفزعك وجعلك تغير عادتك، وتجلس بجوار السور حتى أشرقت الشمس وأنت لا تدري شيئاً.

حكى لها عن حلمه الذي يراوده منذ زمنٍ بعيدٍ، ولكن هذه الليلة كان مختلفاً عن ذي قبل، كان الثعبان فيما مضى أقل في الحجم وكان يظهر من بعيد ثم

يختفي وكأنه ومضة، وحين كان يتسلق في منامه سفح التلة. تلة الغجر كان يراه ثم يختفي أيضاً. أما الذي رآه بالأمس كان رهيباً لم يختفِ مثلما كان يفعل انحدرت منها دمعتين فوقع قلبه نحوها.. قام وضمها إلى صدره ثم أحاط وجهها بكفيه وسحق دموعها، ثم راحت عيناه تنهل من هذه الخضرة المنسكبة منذ الأزل في أحداق " شامية " الغالية الجالسة أمامه على حصير الكوخ وقد كشفت فتحة جلبابها عن انضمام نهديها التصقت عيناه فلم يستطع لهما حولاً حتى انتبهت فضحكت واتحد جسداهما في شوقٍ وهيامٍ.. المار بالقرب من الكوخ يسمع ضحكاتهما ويسمع هيامهما، ولكن لا يستطيع أحد أن يمر من أرض "غالب" حتى وإن كان جريئاً، بعد فترة ليست قليلة خرجا من الكوخ، أخذها من يدها إلى الخارج، سار أمامها خرجا من أشجار الفاكهة وقفا عند الطريق أشار بأصبعه قائلاً:

- هذه أرض فايز التي ورثها من أمه وهذا الفدان هو لنا أما هذه الأرض ومساحتها خمسة أفدنة هي لنا والتي تم استصلاحها.. والعُرف هنا من له أرض ملك يأخذ مثلها من أرض الحمراية، كنت باستطاعتي أخذ الكثير، ولكن الظلم ظلمات يوم القيامة.

- وهل أخذ أحد أكثر من حقه ؟.

- كثيرون أولئك الذين أخذوا أكثر من حقهم، أخذوا حق الضعفاء الذين لم يستطيعوا الإنفاق على هذه الأرض البور، وكثيرون من استصلحوا وزرعوا ولكن جاء غيرهم وخصصها باسمه وطردهم بقوة القانون وقوة البطش، وآخرون معهم المال ولكنهم ضعفاء لم يستطيعوا أخذ حقهم.

- وأرضنا هذه هل تم تسجيل عقودها؟.

- نعم تم التخصيص ودفع الرسوم وأخذ العقود وتسجيلها في مصلحة الأملاك والتشريعات والجمعية الزراعية وعقودها مناصفة بيني وبين فايز.

- هل وافق عمي سلطان على ذلك؟.

- هو يعرف أن عرب تعيش معه بالسحر وبدونه كانت منذ زمن بعيد مطلقة.. وأنه يفعل أشياء لا يرضى عنها بعد ذلك، ونعرف كلنا السبب لذلك أخذ فداناً ونصف الفدان من الثلاثة أفدنة التي تركها لنا أبي، عليه رحمة الله كتبها بيع وشراء باسم فايز، وكذلك هذه الأرض المستصلحة، كتب عقودها باسم فايز أيضاً.

- هل تعرف عرب ذلك ؟.

- لا تعرف شيئاً عن هذا. وهذا سر بيني وبين سلطان وفايز، لا تخبري أحداً وأنسي أني قلت لك شيئاً.

كانا قد عبرا زراعات الذرة، وقف عند بداية الطريق المؤدي إلى البلدة، عالج حشرجة في صوته وقبل أن تقف " شامية " وتستدير نحوه وسحق بظاهر كفه دمعة حاولت الظهور

نادها:

ـ شامية

ردت على الفور:

ـ عيون شامية

ـ الموت علينا حق وأنا لا أخشاه وصيتي لك أولادي

قالها ثم راح يعدو عائداً إلى كوخه

يشعر منذ الصباح بمرارة في حلقه رغم تناوله أشياء محلاة يحس صدره ثقيلاً كأنّ شيئاً جاثماً فوقه وأنفاسه مخنوقة، لم يكن هو وحده فقط الذي شعر بذلك وهو يلقي قصيدته في ندوة ثقافية أقامتها الجامعة ضمن أنشطتها الصيفية.. اقتربت منه " زهرة وحيد" وهي معيدة بقسم اللغة العربية، صافحته قائلة:

ـ دكتور فايز أهنئك على قصيدتك، هي رائعة ولكن صوتك لم يكن مع القصيدة كان في مكان آخر

ـ أشعر منذ الصباح وكأن شيئاً جاثماً فوق صدري. أشعر باختناق يكاد يحبس أنفاسي وصوتي

ـ هل أهلك في البلد بخير ؟

ـ لا أعرف منذ مدة طويلة لم أسافر، ولكنهم على ما أعتقد بخير كان أبي وعمي عندي من قريب منذ شهرين، يوم مناقشة رسالة الماجستير

ـ لست مضطراً للبقاء هنا، اذهب واطمئن وعد سريعاً للدكتوراه، وغداً الجمعة يمكنك أن تسافر الآن

غادرته زهرة أم غادرها لا يعرف. أخذته قدماه إلى مكانه القديم. جلس يحدث نفسه ماذا أفعل هل كلام زهرة صحيح؟ ولكن ماذا أفعل بالعهد الذي قطعته على نفسي منذ أربعة سنوات وخمسة أشهر وخمسة وعشرون يوماً حتى هذا اليوم الخميس الموافق

13|8 |1981. أن أظل بعيداً حتى يقضي الله في أمرنا، هل أخسر مبادئي، هل أبي مريض؟ هل هي بخير؟ أعلم أنها نجحت وحصلت على اللسانس والحمد لله. في زيارتهما الأخيرة قال عمي إن "إبراهيم وفايز" بخير ويلعبان

الكرة، أعتقد أنهما في آخر السنة الثالثة من عمرهما.. دائماً قلبي يحدثني مسبقاً، لا أشعر بهذا الانقباض إلا إذا كانت هناك أشياء غير جيدة .

ـ عدت مرة أخرى إلى انزوائك ومكانك القديم.

إنها "نجوان السعيد "، صحفية الآن وباحثة في الدراسات العليا يضحك وهو ينظر نحوها:

ـ أهلاً بك، لا لن أعود، ولكن هي حالة من الضيق والاختناق ومرارة في الحلق، أشعر بها منذ الصباح.

تجلس بجواره وتقول:

ـ نعم لاحظت توترك وتغير صوتك، ولما افتقدناك، قلت لهم أنا الوحيدة التي أعرف مكانه الآن، ماذا بك هل هناك شيئاً لا أعرفه؟!

ـ ليس هناك شيء، وإنما هو انقباض في قلبي لا أعرف سببه، قلبي دائماً يحدثني ويصدق حسي. منذ كنت صغير أشعر بهذا الانقباض أيام مصائب عرب.

ـ إذاً سافر واطمئن وعد سريعاً

ـ تعرفين الأسباب

ـ إذاً هي شامية

ـ نعم وهي أمامي وخاصة بعد كل هذا الغياب لا أستطيع التحمل، وأفضل الموت على أن يسمع عمي كلمة واحدة من أحد، أنتِ لا تعرفين قيمة هذا الرجل عندي وفضله، إذا كان هناك من يخاف عليّ ويدافع عني ويعتني بي ليس أبي بل هو

- أعرف ذلك، وشاهدة ما فعله هنا في الجامعة تعبيراً عن فرحه. ومازلت أتذكر حكاياتك عنه، ولكن ليس أمامك حل آخر، يمكنك لحاق قطار الثانية وتكون هناك في البلد على المغرب، تطمئن وإذا لم يكن هناك شيء تعود غداً الجمعة دون أن تراها.

تقوم وتجذبه من يده وتقول له في حزمٍ:

ـ سافر الآن، وإذا لم أجدك هنا السبت، سوف أقدم لك أجازه أسبوع.

خرج مسرعاً حيث شقته الجديدة بميدان المساحة بالدقي، يقول في نفسه وهو يغادر الجامعة ويشير إلى تكسي "هي بعض الملابس يمكنني فعلاً اللحاق بقطار الثانية، وبمشيئة الله أكون بحلول أذان المغرب في البلدة ".

الشمس تحتضن الشفق عند حافة الأفق الغربي، تحاول جمع أشعتها من فوق المزارع وتتهيأ للرحيل، ينظر إليها "غالب" وهي تميل إلى الإحمرار وقد أنهى عمله.. يشتاق الآن إلى "شامية "وأولاده أكثر من هذه الأرض، يعرف أنه ظلمها بتجاهله، يحدّثُ نفسه " بأن هذا التجاهل غير مقصود، فهو لم يفعل شيئاً يغضبها، يهز رأسه نافياً ويقول وهل هناك شيء يغضب المرأة أكثر من أن يتجاهلها زوجها، فلا يكاد يشعر بها وتكون حياته وحبّه وعشقه لشيء آخر حتى وإن كانت هذه الأرض.. لابد من التوازن بين حبّي " لشامية" وأولادي وحبّي للأرض.. الآن حبهم يفوق حبَّ الأرض، سوف ألعب مع "فايز وإبراهيم " كطفل ثالث في سنهم وسوف تكون " شامية " من الآن أماً لثلاثة أطفال، سوف أملأ حياتهم حباً وعشقاً من الآن سوف أفتح لها مكتب محاماة كبير لتكون أول محامية في المنطقة كلها ".

يحدث نفسه وهو يربط مسماري ماكينة الري ذي العجلتين الكبيرتين بمؤخرة العربة الحديدية، يعاتب نفسه " لماذا تأخر كل هذا الإحساس وهذا الشعور، الله عليم بنا لعلّ التأخير فيه خير للجميع". وضع كل أغراضه في العربة ثم علقها في الحمار الواقف وأمامه كمية من الحشائش، يأكل وينظر إلى صاحبه.. أول مرة يعود إلى البيت قبل أن تغرب الشمس، كان يعود في

الظلام الحالك وأوقات بعد العشاء بوقتٍ طويلٍ.. القلق ينهش قلب " شامية " تشعر بالخوف على "غالب " تجلس مطرقة الرأس في نفس المكان الذي كانت تجلس معه في الصباح الباكر تنتظره تقف كل برهة فوق المصطبة الطينية بجوار السور. يخرج صوتها:

ــ استر يا رب، اللّٰهُمَّ سترك الجميل.

تشبُّ وترفع قامتها حتى تراه، تمنّي نفسها أن تراه هذه المرة وقد نزل عن العربة قبل المنحدر

يحدث نفسه بصوتٍ عالٍ: "فقط ربطة البوص هذه أضعها في العربة ونعود إلى الأحبة.

كان قد ربطَ منذ قليل مجموعة من ربطات البوص الجافة من كومة البوص التي تركها على حافة شاطئ الترعة. أخذ عدة ربطات جمعهم في ربطة واحدة كبيرة. لتأكل منها البهائم ليلاً.

حملها واتجه بها ناحية العربة، لم يشعر بحركتها لأنها كانت حريصة كل الحرص ألا تصدر صوتاً. فردت طولها وتسحّبت من بين أعواد الذرة الجافة حتى خرجت رأسها من بين الأعواد، قدرت المسافة بين مكانها وبين شريان رقبته، هي وثبة واحدة صغيرة وتغرس أسنانها في هذا الشريان النابض.. كان

قد وصل إلى العربة وقبل أن يرفع الربط ويضعها كانت وثبتها تماماً كما تخيلتها منذ لحظة، وكما أرادت في حركة واحدة غرست أنيابها في شريان رقبته تماماً وأفرغت ما بجوفها من سم قاتل.. شعر فجأة بشيء ينغرس في رقبته. تحركت أصابع يده في حركة لا إرادية وأحكمت الإمساك برأسها قبل أن تعود أدراجها إلى مكانها.. جذبها بعنف خرج نصفها ألقى ربط البوص في العربة. جذبها بعنف أكثر خرجت بكاملها كبيرة، تمتم في خفوت " إذا هو الثعبان الذي هاجمني في حلمي " في لحظة كأنها ومضة، أخرج البلطة من حزام وسطه وقطع رأسها التي انفصل عن الجسد ووقع على الأرض، ومازال جسدها بدون الرأس في يده، ضرب رأسها عدة ضربات حتى صارت أشلاءً، ثم ألقى بها داخل العربة وركب بسرعة، لم يركب كعادته على الصندوق في مقدمة العربة، إنما ركب داخل العربة، علق لجام الحمار في قائم حديدي في المقدمة، ونهر الحمار فانطلق يعدو بأقصى سرعة، كان بكاء نهيقه الحمار مسموعاً فعندما أخرجها من البوص رآها وجفلَ منها وارتبك . يضع يده فوق مكان اللدغة وهي ما زالت تتحرك بجواره بدون رأس.. الحمار يعدو بكل سرعته، يعرف أن صاحبه ليس أمامه الكثير من الوقت لعله يلحق بهم ويودعهم الوداع الأخير.. يقول بصوتٍ خافتٍ " سامحيني يا شامية هذا القابع

بجواره مقطوع الرأس لم يترك لي وقتاً كي أغير مسار حياتي" .. زراعات الذرة تمرق بجواره ونهيق الحمار لم يتوقف، و" فهد " يعدو بجوار العربة يحاول القفز داخلها وتقطيع هذا الثعبان القابع داخل العربة، يسمع كل من في الحقول نهيق الحمار، ونباح " فهد " و" غالب " يجلس مترنحاً داخل الصندوق. ينظر إلى المكان الذي ودع فيه " شامية " وقد تجاوزه الحمار، يشعر بالسمّ يسري في شراييه ويقترب من قلبه، يدرك بدنوا أجله من لحظة أن أمسكت أصابعه برأسها ورآها، وضعها في العربة ليعرفوا من الذي قتله. ينظر إلى الأرض لعلّه يرى أثر أقدام " شامية " الصغيرة.. الآن تظهر بيوت البلدة من بعيد يراها بوضوح تقترب ثم تسقط الصورة من عينه وتتغبش يفركهم يعرف السبب.. تعود الصورة من بعيد يرى " فايز " وهو يسير بسرعة. الصورة تهتز يسأل نفسه "هل هو فايز أشعر بوجوده "، يفرك عينيه بشدة، يرى مجموعة من الأهالي يحاولون الوصول إلى الحمار المنطلق كسهم.. يتكئ على جانبه الأيمن مسنداً رأسه على ربطة البوص خلفه، ينظر جهة الغرب نحو قرص الشمس الدامي خلف الأشجار والنخيل.. بعد جهد خارق يستقيم ظهره، ينظر إلى الحمار وهو يعدو أمامه بينما "فهد " يقف في وجهه يحاول أن يوقفه قبل أن يصل إلى المنحدر، ينظر أمامه مرة أخرى بقوة حاول هذه المرة أن يكون حاد البصر

لعلّها تكون الأخيرة، رأى " فايز " بوضوح وقد ألقى نفسه ليمسك برقبه الحمار قبل أن يتجاوزه ويصل إلى المنحدر. قال بصوتٍ واهنٍ: "دائماً قلبه يحدثه بالمصائب" . رأى شامية تعدو من بعيد تصعد المنحدر وتعدو بكل قوتها نحوه، غابت الصورة تماماً، لم يعد يرى شيئاً. الآن أدرك نهايته ببطءٍ شديد تمتم بالشهادة قبل أن تميل رأسه إلى الخلف حيث ربطة البوص ولم تعد ثانية.

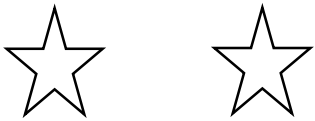

تمت بحمد الله

تلة الغجر

رواية
حسام طه

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com